لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم

تأليف

الأمير شكيب أرسلان

مراجعة

الشيخ حسن تميم

التونسي الدمشقي

منشورات دار مكتبة الحياة

بيروت - لبنان

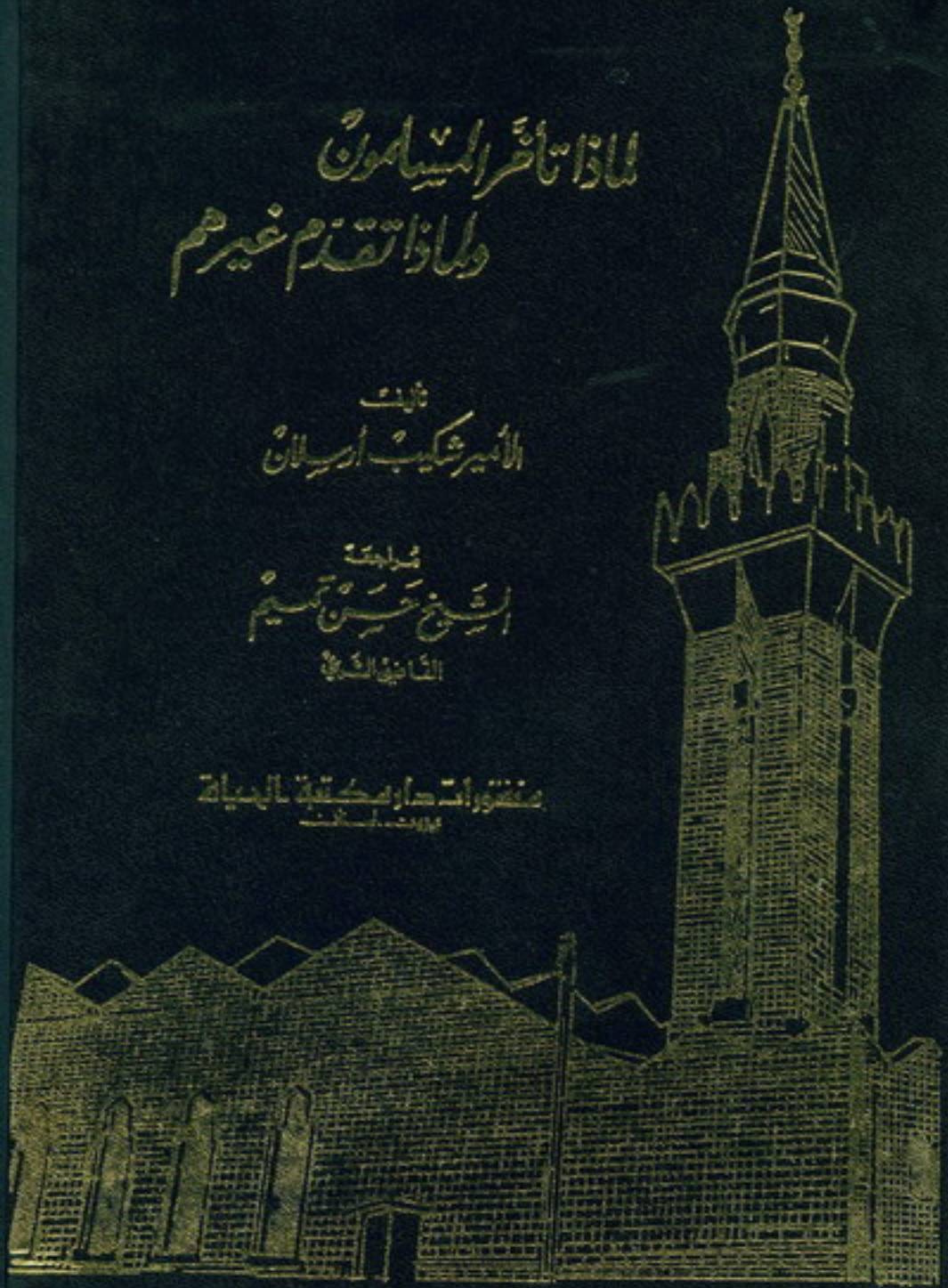

لماذا تأخر المسلمون
ولماذا تقدم غيرهم

لماذا تأخر المسلمون
ولماذا تقدم غيرهم

تأليف
الأمير شكيب أرسلان

مراجعة
الشيخ حسن تميم
القاضي الشرعي

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

قصة « التخلف » بين المسلمين قصة حديثة ، بدأت منذ أن بدأ المسلمون يذوقون طعم « الهزائم المصيرية » في بلاد المجد المفقود — الاندلس — ، ولا شك في ان المسلمين عموماً ، كانوا يتقبلون ما تأتي به الاقدار ، وما تسوقه اليهم الايام ؛ من مواقف انكسار طارئة ، أو نكبات ظرفية ، أو خسارات موضعية ، كانوا يتقبلون كل ذلك بروح مؤمنة ؛ وقدرة مطمئنة ، ونيّة خالصة من الشكوك والاوهام ، صادقة العزم على تحويل الاحوال ، وتغيير الاوضاع ، واقتناص الانتصارات بشتى الوسائل والاساليب الشريفة .

والأمم كالأفراد ، تمرّ بها صنوف الاختبارات وتطيف بها انواع البلايا ، وتتقلب في حياتها بين ادوار العز والاستكانة ؛ والغلبة والمهانة ومن خلال صمودها في هذه الادوار ، وحفاظها على القيم ، يجري تصنيفها بين الأمم في قائمة « المتخلفين او النامين او المتفوقين » .

ولعلنا لا نجافي الحقيقة إذا زعمنا ان السؤال الرهيب « لماذا تأخر

المسلمون ؟ » لم يكن ليرد على ذهن أحد من عامة المسلمين ؛ قبل منتصف القرن السادس الهجري . لسبب بسيط وهو أن السؤال في تلك الفترة ، كان غير ذي موضوع ... إذ لم يكن له أصل في واقع الحياة الإسلامية ، فسفينة «الدولة الاسلامية» تسير رخاء ؛ والهيبة وافرة ، والثروة أوفر ، وليس في ميدان الحضارات منافس ؛ ولا في ساحة الافكار والآراء ندّ ولا مقارع .

أما فيما بعد ذلك ، فقد طرأت على « الوجود الاسلامي » شرقاً وغرباً تغييرات مهمة ، استوقفت الانظار واستقطبت الافكار ، الأمر الذي تكونت معه عناصر السؤال المرير : لماذا تخلف المسلمون ؟ وهذه التغييرات لا يمكن حصرها وتحديدها في هذه العجالة ، إلا أن أهم هذه التغييرات وأمهاتها هي :

اولاً – بروز الطاقة التخريبية الشرسة ، والروح البربرية الطاغية المتمثلة في موجة التتار الآتية من الشرق ؛ والتي اكتسحت امامها كل مظاهر الحضارة ، وسحقت كل آثار العمران ، في أقصر فترة من الزمن – نسبياً – وفي حقبة ، كانت الأمة الاسلامية فيها نهباً مقسماً بين الدويلات ، وشيعاً متنافرة بين الطوائف والمذاهب .

ثانياً – بروز الطاقة العدوانية التعصبية ؛ المتمثلة في الحملات الصليبية الضخمة ؛ والتي كانت تتجهز من جهات اوروبا الأربع ، لضرب كيان الأمة الاسلامية في صميمها .

ثالثاً – بروز التحرك القومي الحاقد ؛ المتمثل في تحالف ممالك « قشتالة » في الاندلس ؛ ونجاح هذا التحالف في قيادة « حرب الاسترداد » المقدسة التي شنها ضد المسلمين .

رابعاً – اكتشاف البارود وتطوير استعمالاته الحربية ، وتوظيفه في ضرب

الحصون والقلاع الاندلسية ، وفي عملية إجلاء ستة ملايين مسلم من الاندلس وتشريدهم في سائر بلدان سواحل البحر الابيض المتوسط .

خامساً – احتدام حركة هدم البنية الاسلامية من الداخل عن طريق الانقسامات الفئوية ؛ والتحزّبات العنصرية والتجمعات الاقليمية ، والخلافات المذهبية وأخيراً عن طريق تشجيع الحركات الباطنية بشتى اشكالها وصورها ومضامينها ، وتأثير هذه الحركة على مسار الدعوة الاسلامية .

سادساً – تشجيع التجزئة الادارية في ساحة الدولة الاسلامية ، ودعم حركات الانفصال والاستقلال تحت ستار القومية تارة والشعوبية تارة اخرى. حتى أصبحت الأمة خاضعة للعديد من الدويلات ، التي يناصب بعضها العداء لبعض .

سابعاً – شل الدعوة الى الاسلام كنظام حكم وأسلوب حياة ، ونمط عيش وتعايش ، وسجن هذه الدعوة ضمن جدران المسجد ، وتقزيم مفهوم الدين بحيث لا يتجاوز نطاق العبادة والتعبد الشخصيين فقط .

ثامناً – التخلف العام، عن ركب الحضارة الحديثة ، وعدم متابعة النهضة العلمية في ميدان العلوم الطبيعية والصناعات وسائر مرافق الحياة .

هذه هي ، في رأينا أمهات الاسباب التي تكوّنت منها عناصر السؤال المرير : لماذا تأخر المسلمون ؟ ولقد واجه الأمير شكيب ارسلان، رحمه الله وأجزل ثوابه ، هذا السؤال بشجاعة وحكمة وعلم؛ ونسج له جواباً جامعاً ضمنه خلاصة علمه ، وزبدة تجربته ، وعنوان درايته ؛ ولا أحد ينكر فضل أمير البيان في التصدي للجواب عن السؤال المرير،ولا أحد يتجاهل مفاعيل رسالة الأمير شكيب وتأثيراتها الايجابية في حياة الأمة الاسلامية .

إلا أن السؤال ، بكل أسى وأسف ، ما برح مطروحاً بالحاح ، وما

فتثبت الاجابة عليه كلاماً جميلاً لا يتقدم بالأمة أنملة واحدة نحو التقدم الفعلي المنشود .

يقول أحد الأدباء : « أمران لا يحدد لهما وقت بدقة » (١) : النوم في حياة الفرد . (٢) : الانحطاط في حياة الأمة . فلا يُشْعَر بهما إلا إذا غلبا واستوليا » .

ومن البديهيات التي لا يجادل فيها أحد أن الاسلام « مبدأ » أتمه الله تعالى وأكمله وارتضاه لخلقه من أجل فلاحهم وسعادتهم وخير دنياهم ؛ بواسطة خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه .

والمسلمون هم أهل هذا المبدأ المطالبون بحمله وتبليغه وتطبيقه والالتزام به ، وبنسبة ما يلتزم أهل هذا المبدأ به يتحقق وجودهم ووجوده ، وبنسبة ما يتغافلون عنه ويتجاوزون أحكامه ، ويتساهلون في نقض اركانه وتجاهل اشراطه ، يتغافلون عن دورهم في الحياة .

وبعبارة أخرى : الاسلام هو قدر المسلمين .

وبعبارة أشمل : الاسلام هو قدر الانسانية .

وقد يصيب التخلف عناصر المسلمين ، افراداً وجماعات ودويلات ايضاً ، ولن يكون هذا لسوء حظ المسلمين وحدهم ، بل لسوء حظ الانسانية جميعاً . لأن هذا المبدأ لا يخص العرب فحسب ، ولا يخص الامم والشعوب التي دانت بالاسلام وحدها ، بل هو هدية الله وهدايته لبني البشر .

ولقد أتى على الإنسانية حين من الدهر ، اسلمت فيه قيادها للمسلمين ، وارتضت بحكم الاسلام ، فما جنت في ذلك الحين إلا الحضارة ، ولا عرفت إلا السلام ؛ ولا ساد فيها إلا العدل ولا شاع إلا الخير .

فماذا جنت الانسانية بانحطاط المسلمين ، وتعطيل الاسلام ، وما هي

محاسن الحياة في ظل سيادة المادة والماديين ، والعلم والعلمانيين ؛ والحضارة الحالية والحضاريين .

لقد حرم اهل هذا العصر انفسهم من الدين، ومن الصلة بالله ، ونسوا غاية خلقهم ومبدأهم ومصيرهم وقالوا « إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » وآمنوا بمبادىء المادة واللذة والحرية المطلقة، والقوة والانتفاع وتنافسوا في امتلاك الوسائل التي تؤدي بهم الى تحقيق تلك المبادىء ، وأدى بهم التنافس الرهيب الى اختلاط الوسائل بالغايات ، وفقدان تعادل القوة مع الاخلاق ؛ واختلال توازن المادة مع الروح ، فانطلقوا في ميادين العلم والتحقيق والتجربة من نقطة فاسدة: نقطة الالحاد والمادية، ونظرة زائفة : نظرة أن الكون ليس له إله ، وأنه ليس وراء المشاهَد والمحسوس شيء ، فاختل أساس مدنيتهم ؛ وعبدوا ذواتهم، واتخذوا إلههم هواهم ؛ واستعبدتهم الآلة ، وفتك بهم العِلم ، وفشلوا في معالجة ادوائهم فشلا ذريعاً .

ومن هنا ، فان المسلمين مطالبون بالنهوض من كبوتهم وبالتخلص من آثار تخلفهم ، وباستئناف دورهم الانساني . لأنهم ، كما اثبتت التجربة ، هم حملة مِشعل النور ، وبيدهم مفتاح الخير ، وعندهم جواب كل مسألة ، وعلاج كل علة وسيكون من حسن طالع الانسان ان ينقاد « لرسالة » الاسلام .

ولئن وفق أمير البيان شكيب ارسلان ، في بيان أسباب تأخر المسلمين وأسباب تقدم غيرهم ؛ فان في توفيقه هذا ما ينير الطريق أمام هذه الأمة لتعاود القيام بدورها الحضاري مرة أخرى .

وتلك هي الغاية المرتجاة من نشر الكتاب في البدء ، ومن اعادة طبعه الآن .

والله المستعان ، ومنه الهداية ، وعليه التكلان.

حسن تميم
القاضي الشرعي

بسم الله الرحمن الرحيم

نظرة عامة عن امير البيان وصاحب المنار

١ – شكيب ارسلان :

شكيب ارسلان ، اسم أضاء في أفق الشرق العربي ، في مطلع هـــذا القرن، فملأ الأبصار والأسماع ، وشغف به الأدباء ، وأكبرته العلماء ، وقدّره السياسيون ، وغدا – خلال خمسين عاماً – كوكباً ترنو الى جهاده الأبصار ، وعلماً في الأدب والسياسة ، ومرجعـاً في التاريخ والفلسفة ، وحجة في النقد والاجتماع ، وغاية في الترجمة والتحقيق .

ومع إكثاره في الانتاج ، ووفرة ما سال به قلمه وجادت به قريحته فان المعنى الجزل لم يكن يفارق كلمته ، والرأي السديد لم يكن يشوب عبارته ، كأنمـا كان البيان طوع بنـانه ، والسحر صنعة جنـــانه ، ولا غرو ، فقد نسج على منوال الأفذاذ من رجال الفكر والقـلم ، ممن تتيه الأسفار بفرائدهم

وتزهو بقلائدهم ، وحاكى أبا اسحاق الصابي[1] في سجعه ، وفي رقة أسلوبه ، واحتذى بابن المقفع في تسديد انشائه وموازنة معانيه ومبانيه ، وتابع أبا بكر الخوارزمي [2] في وثاقة ديباجته وأناقة لغته ، ولاحق بديع الزمان [3] في سلامة نثره وسحر بلاغته ، وترسم خطى ابن خلدون في إصابة فكرته ، وحكمة نظرته ، وجلالة تقريره .

بهذه الروح وذلك الهدي ، عانى شكيب ارسلان صناعة الكلمة ، فألان عصيها وأدنى قصيها ، وعانى صناعة القريض فأخضع متون بحوره ،

---

(١) ابو اسحاق الصابي هو ابراهيم بن هلال بن ابراهيم بن زهرون الحراني ، نابغة كتاب جيله تقلد ديوان الرسائل والمظالم ايام المطيع لله العباسي ، وتقلد ديوان رسائل معز الدولة الديلمي ، فكان ما يصدره عنه من المكاتبات لعضد الدولة سبباً في حقد هذا الاخير عليه . وحينما ملك عضد الدولة قبض عليه سنة ٣٦٧ هـ وسجنه . كان صلباً في دين الصابئة ، وكان يحفظ القرآن ويشارك المسلمين صوم رمضان . وله ديوان شعر وكتاب « التاجي » في أخبار بني بويه ولد سنة ٣١٣ هـ وتوفي سنة ٣٨٤ هجرية .

(٢) ابو بكر الخوارزمي هو محمد بن العباس من خوارزم ، من أئمة الكتاب واحد الشعراء العلماء ، كان ثقة في اللغة ومعرفة الأنساب ، صاحب الرسائل المعروفة استوطن نيسابور واتصل بالصاحب بن عباد . كانت بينه وبين بديع الزمان محاورات ممتعة أوردتها أمهات كتب الأدب وهو ابن اخت محمد بن جرير الطبري المعروف . ولد سنة ٣٢٣ هـ وتوفي سنة ٣٨٣ هجرية في نيسابور .

(٣) بديع الزمان هو أحمد بن الحسين بن يحيى الهمذاني . أحد أئمة الكتاب له المقامات المشهورة التي احتذاها الحريري في مقاماته ، وكان شاعراً ذاعت شهرته بعد ان دارت بينه وبين أبي بكر الخوارزمي المحاورات والمساجلات المشهورة ، لذلك فقد خلا له الجو بعد وفاة الخوارزمي وتقلب في بلاد خراسان وسجستان ونال الجوائز . من عجائب ما يروى عنه ان اكثر مقاماته ارتجال وانه ربما يكتب الكتاب مبتدئاً من آخر سطوره الى السطر الاول فيه فيخرجه ولا عيب له ، ولد سنة ٣٥٨ هـ وتوفي مسموماً سنة ٣٩٨ هجرية .

وتصرف في فنون القول تصرف الحاذق الخبير، فملأ الدنيا وشغل الناس قرابة نصف قرن .

وكان أمير البيـــان في صولاته الفكرية وجولاته السياسية من الأوائـل الذين حركوا فـترة الجمود الفكري والسياسي في الأمـة الاسلامية ، وأثار ، لذلـك حوله طائفة من أصحـــاب الأقـلام والحكام ، فكان منهم المشيد والحامد ، وكان منهم الناصح والناقـد ، وكان منهم المتجني والحاسد . غير ان ذلك لم يفت في عضده ولم يحل بينه وبـين المضي في السبيل التي ارتضاها وأخذ نفسه على احتمال مشاقها ، فقد كان رحمـه الله صاحب رسالة قبل أن يكون حامل قلم ، وجندي عقيدة قبـل أن يكون « محترف أدب » ولعل أول ما يبدو لقارئه ، ومتتبع رسائله وتحقيقـــاته ومؤلفاته ، انه يستقطر لواعج نفسه حين يكتب ، ويصوغ عواطف قلبه حين ينشىء ، ولعل الحقيقة الأولى الكامنة وراء انتـاجه الفكري ان الرجل يتملكه احساس ظاهر بأنه *مسؤول عن تراث العربية ومطالب بحراسة مواريث الاسلام، ومنتدب للذب* عن قضـايا العرب ، ومكلف بالعنـاية بشؤون المسلمين ، ومن الطبيعي ، ان من تملكه هذا الاحساس وأوتي مـــا أوتيه أمير البيان من عراقة المحتد ، وفصاحة اللسان ، وعمق المعرفـة لا يمكنه إلا ان يكون شكيب ارسلان في سيرته وسريرته ، وفي سجاياه ومزاياه ، وفي اخلاصه وعزيمته .

أسرته :

أمير البيان ، فرع شجرة باسقة ، (آل ارسلان) زينت التاريخ العربي والاسلامي بحكام وأمراء ومجاهدين وقـادة وعلماء ، وهي من أعرق بيوتات الامارة في العرب وأعتقها نجـــاراً وأزكاها مغرساً ، وفيها يستقر معدن من أكرم معادن الحسب الصميم والنسب الأصيل ولم يجانب الحقيقة من قـال عن أمرائها : أمراء سيف وقلم وحملة عِلْم وعَلَم .

مسقط رأسه :

ولد الأمير شكيب في الشويفات [1] ، مركز العـــائلة الارسلانية التي بناها الأمير مسعود الارسلاني منذ أكثر من ألف سنة،وأبوه حمود بن حسن.. الذي يرقى نسبه الى الأمير ارسلان المتوفي سنة ١٧١ هجرية ، امـا والدته فسيدة شركسية جليلة .

نشأته :

ولد الأمير شكيب في بيت الأسرة بالشويفات – حـــارة الامراء يوم الاثنين اول ليلة من رمضان المبارك سنة ١٢٨٦ هـ الموافق للخامس والعشرين من كانون الاول سنة ١٨٦٩ م . وتعلم مبادىء القراءة والكتابة مع أخيه نسيب على يد معلم القرية حسبما كانت عليه عـادة السراة في ذلك الحين ، ثم انتقل الى التعلم على يد استاذ آخر فحفظ جانباً من القرآن الكريم ودخل مع أخيـــه مدرسة الامريكان في الشويفات فنـــال قسطاً من العلوم واللغة الانكليزية ، وفي سنة ١٨٧٩ حينما بلغ العاشرة من عمره دخل مدرسة الحكمة في بيروت وتلقى فيها دروس العربية على الشيخ عبدالله البستاني وفيها تعلم الفرنسية والتركية ، وظهرت تبـــاشير شاعريته وهو في الرابعـة عشرة من عمره ، وكان في سني دراسته مبرزاً مع أخيه على اقرانهما .

وبدأت رحـــلاته الاكتسابية في سنة ١٨٨٩ حينما ذهب الى مصر ، وشرع يجالس المشاهير ، ويتعرف عليهم ويتعرفون عليـه عن كثب امثال : الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، والشيخ علي الليثي ، والشيخ علي يوسف (صاحب المؤيـد) وحفني ناصيف والسيد احمـد محمود ، واحمد زكي باشا ، وطفق رحمه الله وهو في سن الشباب ينشىء علاقـــات شخصية وأدبية مع اعلام عصره امثال الشاعر اسماعيل باشا صبري ، والشيخ علي يوسف ، وامير

---

(١) بلدة في لبنان تقع بين مدينتي بيروت وصيدا .

الشعراء احمد شوقي ، والبارودي ، وعبـــدالله باشا فكري ، فسامر بعضهم وراسل البعض الآخر ، وامتدح او كاتب بعضهم الثالث .

وتقلبت به السنون شاعراً وناثراً ومصلحاً اجتماعياً ، وبحـــاثة لغوياً ، ورائد فكرة سياسية ، ومهاجراً ، ومترجماً ، ومحققـــاً ، وسائحاً وهو في جميع ذلك انسان عين العروبة ، ولسان الأمة الاسلامية وأمير البيان العربي في القرن العشرين .

وفي ليلة الاثنين ١٥ محرم سنة ١٣٦٦ هجرية – ٩ كانون الأول سنة ١٩٤٦ م لقي الامير شكيب وجه ربه بعد ان اصيب بمرض تصلب الشرايين ، وأفل النجم الذي اضاء دنيا العرب ، وصمت اللسان الذي نافح عن قضايا الاسلام .

امير البيان :

جمع شكيب ارسلان الامارتين ، امارة النسب وامارة البيان ، ولئن كانت الامارة الاولى لا تضارع في الاصالة ، فان الثانية لا تقل عنها مكانة ولا شيوعاً ، إذ أنه رحمه الله ، عرف بهذا اللقب ، الذي اطلقته عليه الأمة وارتضاه له العلماء والادباء والطبقة العليـــا من المفكرين ، وكان الاختيـــار موافقاً لسابقة الامير ومعبراً عما يستحقه من الثنـــاء والتقدير ، وطابقت فيه « التسمية المسمى » ورافق الخَبَر الخُبْر باجماع الادباء .

وأول من أطلق عليه لقب « أمير البيـــان » السيد رشيد رضا (صاحب المنار) رحمه الله ، وهو رفيق جهاده ، واخوه الخبير بعلمه وفضله .

ولئن كان « موضوع التسمية هذه » محـــل جدل بين الباحثين ، ولئن صدرت بعض الآراء الشاذة عن جدارة الامير بها وحقه بجيازتهـــا فاننا نرى

أن ألسنة الخلق اقلام الحق ، وأن نور الشمس لا تحجبه الأكف الصغيرة ، ولا تطفئه الافواه العاجزة وأن الله متم نوره ولو كره المشزكون .

وسواء أكان مطلق اللقب الأول السيد رشيد رضا أم سواه ، فانه مما لا شك فيه أن جمهور الادباء وأرباب القلم في الأمة العربية جهروا بهذا اللقب وقابلوا به الامير والأمة والسنين الطوال ، وثبت من اجماعهم اثنـــاء حياة الامير ، ومن حصيلة ما ترك الامير من تراث ، بعد وفاته ، ان اللقب صادف اهله ، والتقدير لاقى محله .

نضاله وأهدافه :

عاش الامير شكيب حيـاة حافلة ، أشبه ما تكون بحيـــاة المناضلين الاوائل أصحاب العقيدة والقلم ، وفتح عينيه على النور فرأى دولة الاسلام (الدولة العثمانية حينذاك) صائرة الى الافول ، تحيط بها الدول الكبرى من كل جانب وتقتنص اطرافها ، وتتحلب اشداقها شوقاً لابتلاع ولاياتهـا ، ولا تتورع عن الايقـــاع بينها وبين شعوبهـــا ، والامير مسلم غيور صافي العقيدة ، مشبوب العاطفة ، ينتضي قلمه كل حين ويدافع عن دولة الاسلام ما وسعته الحيلة ، فنراه حينما تطور الخلاف بين ملك السعودية وإمـام اليمن حول منطقة عسير يسارع الى رأب الصدع ولمّ الشمل ويقود حملة التوفيق ، لكي يفوّت فرصة التدخل واللعب على (الاصابع الاجنبية) ، ونراه حينما اعتدت ايطاليـــا على ليبيا بطرابلس الغرب ، يشعر ان الوقتِ وقت سنان لا لسان ، فيتطوع ويذهب بنفسه للالتحاق بالمجاهدين في ليبيا .

غير ان طب الامير في معالجة دولة الاسلام وسلاحة في الذود عن حياضها لم يمنعا عنها خطر الانحلال والخسران . وانتهت الحرب العالمية الاولى على غير ما يشتهي ويروم ، فلم يفقد أعصـــابه ، ولم يضع صوابه وبادر الى تغيير

الاستراتيجية السياسية ، والتفت نحو الأمة العربية وأولى قضاياها اهتمامه ، وقدم لهذه القضايا أثمن ما يقدمه انسان : نفسه وفكره وماله وقلمه ، ورأى بثاقب نظرته وصادق فطرته ، ان الإبقاء على البلاد العربية إبقـاء على عمود الإسلام ، فأطلق أول دعوة للوحـدة العربية وأول فكرة لتأليف الجامعة العربية . وقال له الملك فيصل الأول : أشهد أنك أول عربي تكلم معي عن الوحدة العربية ، ويروي الدكتور رئيف ابو اللمع ان الامير قال له بعد قليل من انتهاء الحرب العالمية الأولى (العرب أمة كاملة ، أي أن لها جميع العناصر التي يقتضيها كيان الأمم من الوجهة السياسية والاجتماعية ، فلها عرق واحد ولسان واحد وأكثرية دين واحد وتاريخ واحد ، كما أن لهـا مصالح واحدة ومنافع واحدة وآمالاً واحدة . ولكن الذي فت في عضد هـــذه الامة وأضعفها وأفقرهـا وأقصاها عن السير في موكب المدنية والرقي هو تفككك حلقاتها ، واستعمار الاجنبي لها، فأنا جندي من جنودها له ثلاثة أهداف جلية واضحة تمام الوضوح ، الأول : هو الاتحاد ، والثاني : هو التحرر، والثالث: هو السير في موكب النهضة والعلم والبحث) .

وانطلق الأمير في نضاله الذي لا يكل ولا يمل مستهدفاً أغراضه الثلاثة، يحدوه بالفعل شعور الجندي ، الجندي المغامر الحكيم ، الذي لا يعبأ بتشريد ولا يلين لتهديد ، ولا يهتم للمال ولا لراحة البال . فسافر الى برلين وامتلك بها بيتاً ، وراح ينتقل في أوروبا من قطار الى قطار ، لا يلقي عصا التسفار إلا ليحملها ، ولا ينفض غبار معركة إلا ليخوض أخرى ، ولا يترك القـلم لحظة إلا ليشرعه من جديد .

وانتقل من برلين الى جنيف وشغل فيها مركز أمين عام للمؤتمر السوري الفلسطيني سنة ١٩٢١ وطالب باسم المؤتمر باستقلال سوريا ولبنان وفلسطين والاعتراف بحقها في الاتحاد واعلان إلغاء الانتداب فوراً . واختارته اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني ليكون عضواً في الوفد العربي الذي يدافع

عن قضايا العرب أمام جمعية الأمم ، فحمل الأمانة ، وأدى الرسالة ثم سافر الى امريكا الشمالية وقصد الاتحاد السوفياتي تلبية لدعوة رسمية وأدى فريضة الحج ، ورحل الى الأندلس (اسبانيا) وأصدر مجلة باللغة الفرنسية في جنيف اسماها « الأمـــة العربية » ليسجل فيها جهود العرب ومحاولاتهم للتحرر والاستقلال وليحرض قومه على الكفاح والنضال ، وقابل مع صديقه احسان الجـــابري موسوليني ، وباحثه في موضوع القضية الطرابلسية ، وتوصلت محادثاتهما الى نتائج إيجابية هامة وأنكب على كتابة البحوث السياسية وتنظيم المذكرات والاحتجاجات وإذاعة النداءات ، وتوزيع كل ذلـــك على وفود جمعية الأمم ورجالها ثم خطر له سنة ١٩٣٦ أن يجمع ما كتبه في تلك الميادين فوجد أنه يقع فيما يقارب العشرين مجلداً وأنه يتعذر عليه طبعه فأهداه جميعاً الى نظارة الخارجية السورية .

وفي سنة ١٩٣٦ أرادت الحكومة السورية أن تعبر عن تقديرها لمكانة شكيب ، ونضاله في سبيل وطنه وامته فاختارته رئيساً للمجمع العلمي العربي ، ولقد كان هذا الاختيار يصادف هوى في نفس الامير ورغبة في صدره لأنـه كان يعتز بعضوية المجمع لولا ان الظروف السياسية اقتضت اعتذاره عن قبول الرئاسة احتجاجاً على فرنسا التي تنكرت للمعاهدة المعقودة مـع سوريا سنة ١٩٣٦ ورفض القيد المعنوي واختار الحرية والنضال من أجل البلاد .

عودته الى الوطن ووصيته الأخيرة :

عاد شكيب الى وطنه ، ورأى بيروت بعد الهجرة الطويلة في الثلاثين من تشرين الأول سنة ١٩٤٦ ، وسعد بمشاهدة وطنه حراً مستقلاً طليقاً من اغلال الاحتلال والاستبداد ، وتحرك لبنان والبلاد العربية للقاء البطل بعد عودته الى العرين ، ومكث فترة يزور ويزار ويجهد نفسه بالرد على الرسائل التي كانت ترده بكثرة . وتحالف على الرجل تصلب الشرايين والنقرس والرمل في الكليتين

وثقل الثمانين عاماً ، فلم تطل مقاومته وعجزت يد البشر وأقبلت يد القدر في ٩ كانون اول سنة ١٩٤٦ .

وكان آخر ما قاله للاستاذ عبدالله المشنوق ، حينما التقى به قبل موته بأيام : أحمد الله عز وجل الذي سهل لي ان أفارق الحياة على أرض هذا الوطن الذي أحببته ، وانا سعيد ان ادفن في تربة طاهرة لا ترفرف فوقها راية اجنبية ، وانا سعيد ان ألاقي وجه ربي الكريم ، فأعيد هذه الامانة الى بارئها بعد أن تحققت احلام طفولتي في هذه الجامعة العربية حرسها الله . وسأخبر رفاقي في الجهاد بأن تضحياتهم لم تكن عبثاً .

ونحدرت من عيني الأمير دمعتان ، ونهض واقفاً وجذب يد الاستاذ المشنوق وقال له : لي وصية واحدة أود ان أوصي بها ، فهل تعدني بأن تنقلها الى العالم العربي بعد وفاتي ؟

فأجابه : لك العمر الطويل ان شاء الله .

فقال شكيب : لا بل تعدني بنقل الوصية .

قال : نعم .

وهنا طوقه شكيب بذراعيه المرتجفتين وقال بصوت كادت تخنقه العبارات : أوصيكم بفلسطين .

لماذا تأخر المسلمون :

قصة الرسالة ، عرف العالم الاسلامي « شكيب ارسلان » أميراً للبيان ولساناً ينقل بصفاء ودقة كلمة الاسلام ، وجندياً على اجل العربية والعروبة ، وذلك من خلال مقالاته ومؤلفاته ومساجلاته وترجماته وتحقيقاته ، واشرأبت اليه الاعناق في كل معضلة ، وافتقده المصلحون الاجتماعيون ، والزعماء

السياسيون أمام كل مشكلة . وفي شهر ربيع الآخر سنة ١٣٤٨ هـ — ١٩٢٩م ارسل الشيخ محمد بسيوني عمران من « جاوة » الى صاحب مجلة المنار السيد رشيد رضا رسالة يوفي فيها الأمير شكيب حقه من الثناء والتقدير على خدمته للاسلام والمسلمين ويقترح عليه ان يبين لقراء المنار اسباب ما صار اليه المسلمون من الضعف والانحطاط والذل ، وان يبين اسباب رقي اهل اوروبا وامريكا واليابان ، وما إذا كان يمكن للمسلمين مجاراة هؤلاء في سباق الحضارة مع المحافظة على دينهم الحنيف ، فأحال السيد رشيد رضا ، الرسالة الى الأمير ويظهر ان الرسالة حركت في نفس الأمير كوامن واثارت شؤوناً وشجوناً وأن السؤال كان يلح في خاطره والاجابة كانت مضمرة في تلافيف ذهنه الوقاد والمنشغل ابداً بالشؤون الاسلامية .

ثلاثة أيام :

ولم يكد ينتهي من رحلته الى الاندلس ، حتى انكب على اعداد الجواب خلال ثلاثة أيام وانفعالات الزيارة الى بلاد المجد المفقود وعواطفها ما زالت مشبوبة في نفسه ، ونشر الكتاب اول ما نشر في مجلة المنار ثم طبعه في كتيب على حدة وقدم له السيد رشيد رضا في أواخر سنة ١٩٤٠ بمطبعة المنار وحلاه ببعض العناوين ، وأعيد طبع الكتاب مرات ، وتناقله العالم الاسلامي بلهفة وشوق وتقدير ، لأنه وجد فيه اجابات صريحة واضحة على تساؤلات كانت تلح في الضمائر وتعتلج في الخواطر . ويقول السيد رشيد رضا عن الكتيب الرسالة :

سارت بها الركبان تطوي نفنفاً فنفنفاً وسبسباً فسبسباً

أثر الرسالة :

لا شك ان الرسالة طارت في أرجاء العالم الاسلامي يجناحي التوفيق

والبراعة ، وكانت عود الثقاب الصغير ، الذي أضاء الطريق المظلم : وحدد المعالم المبهمة وحق للسيد رشيد رضا ان يقول عنها انها (اضطربت بها بعض دول الاستعمار ، وزلزلت زلزالاً شديداً ، حتى قيل لنا إنها أغرت حكومة سوريا بمنع نشرها فيها وهي أحق وأهلها فانفردت بهذه العداوة للاسلام دون من أغروها بها) وقابلت فرنسا الرسالة بحماقة فمنعت دخولها الى الجزائر ، وحظرت على الناس قراءتها كأنما هي وباء ، وجعلت عقوبة لمن يطالعها .

أما العالم الإسلامي ورجاله ، فقد رحبوا بها ، ولفتوا الأنظار اليها وحضوا على نشرها وتعميمها ، واقترح الاستاذ محمد تقي الدين الهلالي في كلية ندوة العلماء بالهند تعميم نشر الكتاب مصححاً مضبوطاً مشكولاً ، ليستوفي في مطالعته الخاصة والعامة وان يسهم الاغنياء في توزيع نسخه ، وان يدرّسه المدرّسون للطلبة وان يخطب به الخطباء مدة طويلة وان يترجم الى اللغات الأخرى .

الرسالة في الميزان :

إن ظروف إنشاء الرسالة ، وكونها جواباً على سؤال طرح في مجلة المنار وتحبيرها في مدة وجيزة جداً — ان صح القول بأنه ثلاثة أيام — واعتماد الأمير فيها على الذاكرة وخلاصة التجارب دون المذاكرة والمراجع دفعت بعض المفكرين الى انتقاد جرمها الصغير والإكثار فيها من وجوه المقارنات بين المسلمين بالأمس واليوم ، وصياغتها بالأسلوب الصحافي والخطابي العاجل ، حتى ان الاستاذ احمد الشرباصي يقول عنها — وقوله حق وصدق — : « انها أشبه بخطبة طويلة النفس فيها من الاثارة والتحميس اكثر مما فيها من البحث والاقناع » .

ومهما قيل في الرسالة فقد كانت بنت ساعتها ، وضرورة من ضرورات عصرها ، أيقظت الأمة ، وأزالت الحجب عن أعينها وحركت العزائم نحو

الاصلاح ودلت بصدق على كثير من مواطن الضعف والانحلال . ولا يقبل انتقادها بكثرة الآيات القرآنية التي اشتملت عليها لأن القرآن دستور المسلمين والمصدر الأول من مصادر التشريع لديهم واللجوء الى آياته وتبيان تحذيراته ووصاياه في موضوع معالجة أسباب تأخر المسلمين من اللوازم الأساسية والضرورات المنطقية لنجاح الموضوع .

كتبه ومنشوراته حسب تسلسلها الزمني :

١ – باكورة : مجموعة قصائد شعرية طبعت بالمطبعة الادبية في بيروت سنة ١٨٨٧ م .

٢ – الدرة اليتيمة : حكم لعبدالله بن المقفع طبعت مصححة بقلم الأمير في المطبعة الادبية في بيروت سنة ١٨٩٣ م .

٣ – رواية آخر بني سراج – تأليف شاتوبريان . عربه أمير البيان وألحق به ثلاثة أجزاء :

أ – خلاصة تاريخ الأندلس الى سقوط غرناطة – بقلمه .

ب – أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر . نشره أمير البيان لمؤلف مجهول شهد وقائع سقوط الأندلس بنفسه .

ج – آثارة تاريخية رسمية – أربعة كتب سلطانية اندلسية صادرة من أبي الحسن علي بن أبي النصر بن ابي الأحمر والد ابي عبدالله آخر ملوك غرناطه . طبع بمطبعة الاهرام سنة ١٨٩٧ .

٤ – اعمال الوفد السوري الفلسطيني: يضم البيانات والمذكرات والمطالب التي قدمها أمير البيان وشاركه في وضعها احسان الجابري وميشال لطف الله وسليمان كنعان . طبع بالمطبعة السلفية – بكانون الثاني سنة ١٩٢٣ م .

٥ – حاضر العالم الاسلامي – تأليف الكاتب الاميركي لوتروب ستودارد ترجمه الى العربية الاستاذ عجاج نويهض وقدم له الحواشي أمير البيان فجاءت تعليقاته وحواشيه أربعة أضعاف الكتاب الأصلي واشتهر الذيل والحاشية حتى اصبح الاصل يعوف بهـا لدى قراء العربيـة . طبعته المطبعـة السلفية سنة ١٩٢٥ م .

٦ – اناتول فرانس في مبـاذله – تأليف جان بروسون . ترجمه وقدم له وعلق عليه أمير البيـان وطبع بالمطبعة العصرية سنة ١٩٢٦ م .

٧ – لماذا تأخر المسلمون – ولماذا تقدم غيرهم . طبع في مطبعـة المنار سنة ١٩٣٠ م .

٨ – الارتسامات اللطـاف في خاطر الحاج الى اقدس مطـاف . كتاب تحدث فيه أمير البيان عن رحلته لاداء فريضة الحج . طبع في مطبعة المنار سنة ١٩٣١ .

٩ – محاسن المساعي في مناقب الامام أبي عمرو الاوزاعي . نشره أمير البيان وقدم له وعلق عليه دون ان يذكر اسم مؤلفه. وهو من تأليف الشهاب أبي العباس احمد بن محمد بن أبي بكر الشهير بابن زيـد الموصلي الحنبلي المتوفي بدمشق سنة ٨٧٠ هجرية . طبع في مطبعة عيسى البابي الحلبي سنة ١٩٢٣م.

١٠ – تاريـخ غزوات العرب – في فرنسا وسويسرا وايطاليـا وجزائر البحر المتوسط . وهو أول تأليف بالعربية في معنـاه وموضوعه . طبع في مطبعة عيسى البابي الحلبي وتاريخ مقدمته ربيع الاول سنة ١٣٥٢ .

١١ – روض الشقيق في الجزل الرقيق . وهو ديوان شقيق أمير البيـان الأمير نسيب ارسلان جمعه وعلق عليه وصدره بترجمة للشاعر وذيـله بنسب العائلة الارسلانية . طبع في مطبعة ابن زيدون بدمشق سنة ١٩٣٥ م .

١٢ – ديوان الامير شكيب ارسلان . طبع بمطبعة المنار سنة ١٩٣٦ م ، وقدم له خليل مطران .

١٣ – شوقي أو صداقة أربعين سنة ذكريات الأمير عن شوقي أمير الشعراء . طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي سنة ١٩٣٦ م .

١٤ – الحلل السندسية في الأخبار والآثار الاندلسية . دراسة اندلسية تتناول الجغرافية والتاريخ والتراجم والعلوم والفنون والآداب . صدر منه ثلاثة اجزاء وطبع أول جزء منه بمطبعة الحلبي سنة ١٩٣٦ م والثاني سنة ١٩٣٩ م والثالث سنة ١٩٤٧ م . وهو في الأصل مرسوم على ثمانية أجزاء ، ولم يعرف بعد ما إذا كانت تتمته ما زالت موجودة أم انها فقدت .

١٥ – السيد رشيد رضا (أو اخاء أربعين سنة) . طبع بمطبعة ابن زيدون بدمشق سنة ١٩٣٧ م .

١٦ – النهضة العربية في العصر الحاضر . طبع في مطبعة دار النشر سنة ١٩٣٧ م . وهو كتيب أصله محاضرة القيت في دار المجمع العلمي العربي .

١٧ – عروة الاتحاد بين أهل الجهاد . مجموعة مقالات نشرت في صحف مختلفة ، جمعتها ادارة جريدة العالم العربي التي كانت تصدر في بونس ايرس . قدم له الدكتور تقي الدين الهلالي . وصدر منه الجزء الأول سنة ١٩٤١ م .

١٨ – « رسائل الصابي » لأبي اسحاق الصابي ، نشرها أمير البيان ، وعلق عليها حواشي نافعة .

• • •

ولأمير البيان منشورات أخرى صغيرة ، (بيان للأمة العربية) و (لائحتي الى المسيو جوفنيل) وهي في الرد على الافتراءات التي وجهها

اليه بعض زملائـه في النضال السياسي . و (الوحـدة العربية) وهو رسالة صغيرة و (رسالة البلاشفة) و (رسالة رحلة المانية) و (رسالة عن ضرب الفرنسيين لدمشق) بالاضافـة الى عشرات الآلاف من المذكرات والرسائل والمقالات والمدونات السياسية التي يطول المقـام بذكرها وحبذا لو ان الدولة اللبنانية عمدت الى تكليف لجنـة خاصة من الادباء والناشرين وبعض آل ارسلان لمتابعة انتاج أمير البيان في تركته التي تملأ عشرات الصناديق المهملة ، وتنسيق هذا الانتاج واخراجه الى العالم العربي وفاء لذكرى الرجل العظيم ، وتقديراً لأدبه وخدمة للثقافة العربية وللبنان الذي ينتمي اليه أمير البيان .

أقوال الأعلام في أمير البيان :

● لو تفرغت طائفة من حمـلة الاقلام جم عديدها ، فياضة قرائحها ، فيما يشاء الله من مسائل السياسة والاجتماع والأدب ، ومباحث التاريخ والاخلاق، لكتابة ما كتب من تلك الفصول والمقالات لتعذر عليهـا أن تأتي مجتمعة بمـا أتى به ذلك المعلم المفرد .

● وإذا كان قد رضي لنفسه في الشعر ان يكون المقل المجيد ، فلا مشاحة في انه انفرد بين المترسلين بأنه المكثر المجيد .

خليل مطران

● .. اميري الذي أقام أهل الادب والبيان عرشاً لا تدانيه عروش ذوي التاج والصولجان ، وما ذلك إلا لأنه اصبح نصير العربية وخادم الاسلام .

أحمد زكي باشا

● أحسن تلاميذي وأقربهم إليّ الأمير شكيب ارسلان .

الشيخ عبدالله البشقاني

● شكيب ارسلان أعظم شخصية عربيـــة . كان لسان الاسلام ومدرة العرب. واحسب ان مقالاته لو جمعت لجاء منها كتاب في ضعف حجم الاغاني.

الشيخ علي الطنطاوي

● ملأ ذكره العـالم الاسلامي وملأت كتاباته الصحف العربية في المشرق والمغرب وعرف ببلاغة الأسلوب واشراق الديباجة حتى سمي بحق أمير البيان.

الاستاذ على الغاياتي

● أمير البيان ، ومدرة بني معد وعدنان وسائر بني قحطان .

السيد رشيد رضا

● حجة الأدب وسيد كتاب العصر .

مصطفى صادق الرافعي

● « اقرأه فأشعر أني في حضرة جبار من جبابرة البلاغة ، تتقاذف أنامله الطود. كما تتداول الحصاة، ويمج قلمه الانداء حيناً والامواج حيناً ، وتتسارع المعاني من قريحته، والمباني من موسوعته، متزاحمة على سنى يراعه، منقادة اليه، لا يكد فيها ذهناً، ولا يستحضر لفظاً، ولا يعمل مهازاً ، ولا يخشى عثاراً ، فهو يرسل الكلام على سجيته ارسالاً عجيباً ، وقـد لبسته افكاره لا قصيراً ولا فضفاضاً بل منفصلاً أحسن تفصيل وأكمله ، مع انه لا يعـــاني في ذلك قياساً ولا مراجعة يأتيك بالصفحة ، تترقرق فيها الألفـاظ كالغدير الصافي ، فتخاله يخاطبـك بلغة عامية ، هي من الفصيح البـارع الفصاحة ، فلا تكاد تفرغ منها حتى يسبح بصرك في ظلال ممدودة يسمو منها الى سفح أو قمة أو خميلة هي قطعة موّارة بالجمل البليغة ، أو فقرة كأداء بالمفردات العويصة

او شواهد شعرية زاهية بالحكم ، زاهرة بالامثال ، وهو في كل ذلك لا يرمي إلى إراحتك أو إلى اعناتك ، بل يضع الكلمة في موضعهـا ، مخلوقة لمحلها ، ومخلوق محلهـا لهـا ، كما تنجذب الأشياء بطبيعتها إلى شكولهـا ، وتـلازم الكهارب مراكزها من نواتها .

رشيد سليم الخوري

• • •

٢ – صاحب المنار : الامام السيد محمد رشيد رضا

ولادته ونشأته :

ولد الإمام السيد محمد رشيد رضا في ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢ في قرية « القلمون » اللبنانية ، الواقعة جنوبي طرابلس الشام .

ونشأ في بيت معروف ومشار اليه بالعـلم والرياسة والارشاد ، فقد بنى جده الثالث مسجد القلمون ، وأنعم عليه السلطان العثماني في حينه ببراءات الامامة والخطابة في المسجد ، وتسلسلت هذه البراءات حتى آلت الى الشيخ رحمه الله .

وأشار رحمه الله في كتابه « المنـار والازهر » الى مكانة إسرته فقـال : « وعهدي بأكبر علماء طرابلس وحكامها ووجهائها يغشون دارنا في ايام الصيف ، ويقيمون فيها أياماً » .

مدرسته ودراسته :

تلقى علومه الاولية في كُتّاب قريته « القلمون » وكانت هذه العلوم : قراءة القرآن والخط والحساب. ثم انه دخل « المدرسة الرشدية » في طرابلس وتلقى فيها مبادىء الصرف والنحو والحساب والجغرافيا وعلم الحال – العقائد

والعبادات – واللغة التركية . ثم التحق بالمدرسة الوطنية الاسلامية ودرس العلوم العربية والشرعية والمنطق والرياضيات والفلسفة الطبيعة على استاذه العلامة الشيخ حسين الجسر الازهري ، الذي أسس المدرسة وحدد لها برنامجها التجديدي .

وقال عن نفسه : « كنت شديد العناية بمطالعة كتب الأدب وكتب التصوف ، وكان اعجب كتب التصوف إليّ « احياء علوم الدين » فكنت أكثر من مراجعته وكان له أكبر التأثير في ديني واخلاقي وعلمي وعملي » وقال : « ونظمت الشعر قبل قراءة العلوم العربية ، وكدت اشتهر به » .

ومن مشايخه – فضلاً عن الشيخ حسين الجسر – :

● العلامة الشيخ محمود نشابة ، أخذ عنه الحديث وفقه الشافعية .

● العلامة الشيخ عبد الغني الرافعي ، أخذ عنه علوم الحديث واستفاد منه في الأدب والتصوف .

● العلامة المحدث العابد الشيخ ابو المحاسن محمد القاوقجي الكبير ، أخذ عنه كتابه في « الاحاديث المسلسلة » . وبعض كتابه « المعجم الوجيز » .

● وزامل من الاقران الاستاذ محمد الحسيني ، والشيخ محمد كامل ابن الشيخ عبد الغني الرافعي ، والعلامة الناسك الزاهد الشيخ عبد الباقي الافغاني ، من اكبر علماء بلده في المعقولات والفلسفة . والاستاذ الشيخ عبد المجيد المغربي ، والاستاذ الشيخ محمد رحيم ، والشيخ صالح الرافعي ، والعلامة الفقيه الشاعر الشيخ اسماعيل الحافظ ، والسيد عبد الحميد الزهراوي .

سفره الى مصر :

وفي أوائل رجب سنة ١٣١٥ ، سافر إلى مصر ، وعزم على إنشاء صحيفة إسلامية فيها، واعتذر من السيد عبد القادر القباني ، صاحب جريدة

« ثمرات الفنون » ، ولم يقبل تولي رئاسة تلك الجريدة ، لعدم توفر مناخ حر يساعده فيما عزم عليه من الحملة الاصلاحية . « وادرك بصدق فراسته وبعد نظره أن العصر الذي يستقبله إنما هو عصر إصلاح ، ودوره فيه دور إيقاظ ، وأن الاسلام في حاجة ملحاح إلى من يمثل فيه هذا الدور » .

اتصاله بالشيخ محمد عبده وآصداره « المنار » :

وفور وصوله الى مصر اتصل بالاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وكان قد تعشقه ، وتعشق معه المنهج الأصلاحي الذي يتبعه هو والاستاذ السيد جمال الدين الافغاني ، وكان من القراء المدمنين على جريدتها «العروة الوثقى» منذ طلبه العلم في طرابلس الشام . كما أنه حظي باستقبال الشيخ محمد عبده ومجالسته لدى زيارته للبنان ، ومروره بطرابلس ، وتداول معه الرأي في منهاج الجريدة التي كان عازماً على إصدارها وفي اسمها؛ وذكر له عدة اسماء ، ومنها المنار ، الوي وقع عليه الاختياز . ويقول رحمه الله : « وكتبت فاتحة العدد الاول بقلم الرصاص في جامع الاسماعيلي المجاور لدار الاستاذ بالناصرية ، وذهبت بها الى داره فعرضتها عليه فاعجبته جد الاعجاب » .

وجملة القول أنه ، والاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، كانا « كروح واحدة في جسدين » يتكاشفان ويتساران ، وينسقان كل مع الآخر أوجه النشاط والعمل والاصلاح والكتابة .

وكان الشيخ رشيد أول من أطلق على الشيخ محمد عبده لقب « الاستاذ الامام » .

ويقول الأمير شكيب ارسلان : « انه اتخذه إماماً وعاشره لزاماً وأنشأ مجلة المنار لبث أفكاره في الاصلاح الديني والاجتماعي ، والإيقاظ العلمي والسياسي » .

وهكذا بلغت « المنار » في مدة وجيزة من نفوس المسلمين مبلغاً عظيماً، وأثرت تأثيراً مباشراً في التوعية بشكل عام ، وفي بذر بذور النهضة الفكرية والسياسية بشكل خاص ، وصارت المجلة الاسلامية الأولى في العالم الاسلامي ، يحتج بها ويرجع اليها ، وأصبحت هي « موئل الفتيا في التأليف بين الشريعة والاوضاع العصرية الجديدة » .

وثابر الشيخ رشيد رضا على إصدار المنار من سنة ١٣١٥ إلى سنة ١٣٥٤ ، بدون كلل ولا ملل ، وأودع فيها خلاصة تجاربه وذوب فكره ، وفرائد علومه ، ولوامع فتاويه ، حتى ان المستشرقين عدّوا المنار « معلمة اسلامية منقطعة النظير ولا يستغني مسلم عنها » .

وفاته :

وفي الثالث والعشرين من جمادى الاولى ١٣٥٣ هـ الموافق للثاني والعشرين من آب سنة ١٩٣٥ م اسلم الامام السيد محمد رشيد رضا الروح وهو في السيارة عائداً من السويس الى مصر ، تغمده الله بسابغ رحمته .

مؤلفاته :

كان رحمه الله ، من فحول علماء هذه الأمة ، ولقد صدر عن فكره وقلمه من الآثار المفيدة ما يندر صدوره عن العلماء في هذا العصر المتأخر .

وهذا احصاء تآليفه ، كما أوردها الأمير شكيب ارسلان في كتابه عنه :

١ — تفسير القرآن الكريم ، الشهير « بتفسير المنار » وصل فيه إلى الآية الأولى بعد المائة من سورة يوسف ، من عجائب الاتفاق أن نصها : « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث » .

٢ — « التفسير المختصر المفيد » . أراد له أن يكون كالمتن لتفسير المنار طبع منه بعض الأجزاء .

٣ – مجلة المنار وفيها العديد من مقالاته وتحليلاته وتوجيهاته وأفكاره الاصلاحية وروده على المراسلات وتعليقه على الأحداث ، وفتاويه القيمة [١].

٤ – تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده . ثلاثة اجزاء .

٥ – نداء للجنس اللطيف (حقوق النساء في الاسلام) وقد ترجم إلى بعض اللغات .

٦ – الوحي المحمدي ، وقد ترجم ايضاً .

٧ – المنار والازهر ، وفيه ترجم لنفسه .

٨ – ترجمة القرآن وما فيها من المفاسد .

٩ – ذكرى المولد النبوي .

١٠ – مختصر ذكرى المولد .

١١ – الوحدة الاسلامية . وطبعت باسم « محاورات المصلح والمقلد » .

١٢ – يسر الاسلام وأصول التشريع العام .

١٣ – الخلافة ، أو الامامة العظمى .

١٤ – الوهابيون والحجاز .

١٥ – السنة والشيعة ، ظهر منه الجزء الاول .

١٦ – خطاب عام فيما يجب على المسلمين لبيت الله الحرام .

١٧ – مناسك الحج واحكامه وحكمه .

١٨ – المسلمون والقبط .

---

(١) جمعت فتاويه وطبعت في بيروت فبلغت سبع مجلدات .

- ١٩ – تفسير الفاتحة والكوثر والكافرون والاخلاص والمعوزتين ، في مجموعة تشتمل على تفسير سورة العصر للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده .

٢٠ – رسالة في الصلب والفداء .

٢١ – حقيقة الربا . طبع منها ست وتسعون صفحة فقط .

٢٢ – مساواة المرأة بالرجل ، وهي مناظرة مع الدكتور محمود عزمي في الجامعة المصرية .

٢٣ – رسالة في حجة الاسلام الغزالي .

٢٤ – المقصورة الرشيدية ، عارض فيها المقصورة الدريدية .

٢٥ – رسالة في التوحيد على طريقة السؤال والجواب .

٢٦ – الحكمة الشرعية في محاكمة « القادرية » و « الرفاعية » .

رسالة ألفها اثناء طلب العلم رداً على السيد أبي الهدى الصيادي فيما تعرض به للشيخ عبد القادر الجيلاني .

ولو لم يكن له من المؤلفات إلا تلك المجلدات الخمسة والثلاثين من المنار لكان ذلك كافياً ليكون نوراً يسعى بين يديه في الدنيا والآخرة .

المقدمة

على هذه الرسالة لفقيد الاسلام الاستاذ
الحجة السيد رشيد رضا قدس الله روحه

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَومٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (١) .

ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (٢) .

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٣) .

---

(١) سورة الرعد ١١ .
(٢) سورة الانفال ٥٣ .
(٣) سورة غافر ٥١ .

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ ٱلصَّادِقُونَ (١) .

كتب إليّ تلميذي المرشد الشيخ محمد بسيوني عمران إمام مهراجا جزيرة سمبس برنيو (جاوه) كتاباً يقترح فيه على أخينا المجاهد أمير البيان أن يكتب للمنار مقالاً بقلمه السيال في اسباب ضعف المسلمين في هذا العصر وأسباب قوة الافرنج واليابان وعزتهم بالملك والسيادة والقوة والثروة . وقال في كتاب آخر إنه قرأ ما كتبناه في المنار وتفسيره من بيان الأسباب في الأمرين ، وما كتبه الأستاذ الامام في مقالات (الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) في الموضوع ، وإنما غرضه أن يكتب في ذلك أمير البيان بقلمه المؤثر المعبر عن معارفه الواسعة ، وآرائه الناضجة ، لتجديد التأثير في أنفس المسلمين بما يناسب حالهم الآن ، لتنبيه غافلهم ، وتعليم جاهلهم وكبت خاملهم ، وتنشيط عاملهم . وبني الاقتراح على الأسئلة الآتية التي صارت مثار شبهة على الدين عند غير علمائه ، فهو يعلم مما سمعه من دروسنا في مدرسة الدعوة والارشاد ومما كتبناه مراراً في المنار والتفسير ان كتاب الله تعالى حجة على ادعياء الإسلام والايمان وليسوا هم حجة عليه .

اقترحت هذا الاقتراح لحمل أخي ووليي الأمير شكيب على كتابة شيء مثل هذا للمنار ، وأنا الذي أنصح له دائماً بتخفيف أحمال الكتابة عن عاتقه لكثرة ما يكتب لصحف الشرق والغرب وللأصدقاء غيرهم ، فأرسلت اليه كتاب الشيخ محمد بسيوني عقب وصوله إلي ، فأرجأ الجواب عنه لكثرة

---

(١) سورة الحجرات ١٥ .

الشواغل إلى أن عـــاد من رحلته الأخيرة إلى اسبانية وقد أثرت في نفسه مشاهد حضارة قومنـا العرب في الأندلس والمغرب الأقصى ، وشاهد تأثير محاولة فرنسة تنصير شعب البربر في المغرب تمهيـــداً لتنصير عرب افريقية المرزوئين باستعبادها لهم ، كما فعلت اسبانية في سلفهم في الأندلس – فكتب الجواب منفعلاً بهذه المؤثرات ، فكان آية من آيات بلاغته ، وحجة من حجج حكمته ، لعلها أنفع ما تفجر من ينبوع غيرته ، وانبجس من معين خبرته ، فسال من أنبوب يراعته ، جزاه الله خير ما جزى المجاهدين الصادقين .

محمد رشيد رضا

كتاب الشيخ محمد بسيوني عمران

حضرة مولاي الاستاذ المصلح الكبير السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار تفعني الله والمسلمين بوجوده العزيز آمين .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أما بعد فان من قرأ ما كتبه في المنار وفي الجرائد العربية العلامة السياسي الكبير أمير البيان ، الأمير شكيب ارسلان ، من مقالاته الرنانة المختلفة المواضيع ، عرف انه من أكبر كتاب المسلمين المدافعين عن الإسلام ، وانه أقوى ضلع للمنار وصاحبه في خدمة الإسلام والمسلمين، واني أرجو من الله تعالى أن يطيل بقاءهما الشريف في خير وعافية — كما أرجو من مولاي الاستاذ صاحب المنار أن يطلب من هذا الأمير الكاتب الكبير أن يتفضل علي بالجواب عن أسئلتي الآتية وهي :

١) ما أسباب ما صار اليه المسلمون (ولا سيما نحن مسلمو جاوة وملايو) من الضعف والانحطاط في الأمور الدنيوية والدينية معاً، وصرنا أذلاء لا حول لنا ولا قوة ، وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز :

وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ (١) .

---

(١) المنافقون : من الآية ٨ .

فأين عزة المؤمنين الآن ؟ وهل يصح لمؤمن أن يدعي انه عزيز وإن كان ذليلاً مهاناً ليس عنده شيء من أسباب العزة إلا لأن الله تعالى قال :

وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .

٢) ما الأسباب التي ارتقى بها الاوروبيون والامريكانيون واليابانيون ارتقاء هائلاً ؟ وهل يمكن أن يصير المسلمون أمثالهم في هذا الارتقاء إذا اتبعوهم في أسبابه مع المحافظة على دينهم « الإسلام » أم لا ؟

هذا والمرجو من فضل الأمير أن يبسط الجواب في المنار عن هذه الاسئلة وله وللاستاذ صاحب المنار من الله الأجر الجزيل .

محمد بسيوني عمران

سنبس بورنيو الغربية في ٢١ ربيع الآخر سنة ١٣٤٨

* * *

هذا نص كتاب السائل ويتلوه جواب الأمير ، وقد وضعنا له بعض العناوين ، لأنها كمحطات الطريق للسالكين وعلقنا عليه قليلاً من الحواشي المفيدة للقارئين ، كما فعلنا ذلك في كتاب الاسلام والنصرانية لشيخنا الاستاذ الامام رحمه الله .

* * *

ملاحظة : الحواشي التي من قلم العلامة السيد رشيد رضا رحمه الله عليها التوقيع بحرف (ر)، والحواشي المضافة الى هذه الطبعة من قلم المؤلف عليها التوقيع بحرف (ش) .

جواب الامير شكيب ارسلان

إن الانحطـاط والضعف اللذين عليهما المسلمون شيء عـام لهم في المشارق والمغارب لم ينحصر في جاوة وملايو ، ولا في مكان آخر ، وإنما هو متفاوت في دركاته ، فمنه ما هو شديد العمق ، ومنه مـا هو قريب الغور ، ومنه ما هو عظيم الخطر ، ومنه ما هو أقل خطراً .

وبالاجمال حالة المسلمين الحاضرة ولا سيما مسلمي القرن الرابع عشر للهجرة أو العشرين للمسيح ، لا ترضي أشد النـاس تحمساً بالإسلام وفرحـاً بحزبه ، فضلاً عن غير الأحمسي من أهله .

إن حالتهم الحاضرة لا ترضي لا من جهة الدين ولا من جهة الدنيـا ، ولا من جهة المادة ولا من المعنى . وإنك لتجد المسلمين في البـلاد التي يساكنهم فيها غيرهم متأخرين عن هؤلاء الاغيار لا يساكنهم في شيء إلا ما نزر ، ولم أعلم من المسلمين من ساكنهم أمم أخرى في هذا العصر ولم يكونوا متأخرين عنهم إلا بعض أقوام منهم ، وذلك كمسلمي بوسنه مثلاً فإنهم ليسوا في سوي مـادي ولا معنوي أدنى من سوي النصارى الكاثوليكيين ، أو النصارى الارثوذكسيين الذين يحيطون بهم ، بـل هم أعـلا مستوى من

الفريقين [1] . وككثير من مسلمي الروسية الذين ليس المسيحيون الذين يجاورونهم أرقى من الطوائف المسيحية التي تساكنهم ، ولا خلاف في أن مسلمي الصين إجمالاً على تأخرهم هم أرقى من الصينيين البوذيين ، هذا إذا كانت النسبة بين الفريقين باقية كما كانت قبل الحرب العامة ، وفيما عدا هذه الأماكن نجد تأخر المسلمين عن مسايرة جيرانهم عاماً مع تفاوت في دركات التأخر .

ويقال ان العرب في جزيرة سنغافورة هم أعظم ثروة من جميع الأجناس التي تساكنهم حتى من الانكليز أنفسهم بالنسبة إلى العدد ، ولا أعلم مبلغ هذا الخبر من الصحة ، ولكنه على فرض صحته ليس بشيء يقدّم أو يؤخر في ميزانية المسلمين العامة .

ولا إنكار ان في العالم الإسلامي حركة شديدة ، ونخاضاً عظيماً شاملاً للأمور المادية والمعنوية ، ويقظة جديرة بالإعجاب ، قد انتبه لها الاوروبيون وقدروها قدرها ، ومنهم من هو متوجس خيفة مغبتها ، لا يخفي هذا الخوف من تضاعيف كتاباتهم ، إلا أن هذه الحركة الى الأمام لم تصل بالمسلمين حتى اليوم إلى درجة يساوون بها أمة من الأمم الاوروبية أو الاميركية أو اليابان .

فبعد أن تقرر هذا وجب أن نبحث في الأسباب التي أوجدت هذا التقهقر

---

(١) كانوا أعلى مستوى من الكاثوليكيين والارثوذكسيين من الجهة المادية بسبب ان ٨٠ في المائة من أراضي بوسنة كانت ملكاً للمسلمين وكان الفلاحون فيها جميعاً من السربيين فمنذ بضع عشرة سنة سنت حكومة بلغراد قانوناً صدقه مجلس نوابها نزعت بموجبه هذه الاملاك من أيدي مالكيها المسلمين وسلمتها الى الفلاحين السربيين غير معوضة على المسلمين إلا ببدل بخس فأصبحوا لا يملكون في بوسنة إلا ٢٥ في المائة من الاراضي فسقطت أهميتهم المادية من ذلك الوقت . أما حالتهم الادبية فمرضية الى اليوم لا يقال انها دنيا بالقياس الى جيرانهم (ش) .

في العالم الإسلامي بعد أن كان منذ ألف سنة هو الصدر المقدم ، وهو السيد المرهوب المطاع بين الأمم شرقاً وغربـــاً ، فقبل أن نبحث في أسباب الارتقاء فنقول :

أسباب ارتقاء المسلمين الماضي :

إن أسباب الارتقاء كانت عائدة في مجملها إلى الديانة الإسلامية التي كانت قد ظهرت جديداً في الجزيرة العربية فدان بها قبائل العرب، وتحولوا بهدايتها من الفرقة إلى الوحدة ، ومن الجاهلية الى المدنية ، ومن القسوة إلى الرحمة ، ومن عبـادة الأصنام إلى عبـادة الواحد الأحد ، وتبدلوا بأرواحهم الاولى أرواحاً جديدة ، صيرتهم إلى ما صاروا اليه من عز ومنعة ، ومجد وعرفان وثروة ، وفتحوا نصف كرة الارض في نصف قرن ، ولولا الخلاف الذي عاد فدب بينهم منذ أواخر خلافة عثمان وفي خلافة علي رضي الله عنهما لكانوا أكملوا فتح العالم ولم يقف في وجههم واقف .

على ان تلك الفتوحات التي فتحوهـا في نصف قرن أو ثلثي قرن برغم الحروب التي تسببت بها مشاقّة معـاوية لعلي والحروب التي وقعت بين بني أمية وابن الزبير قد أدهشت عقول العقـلاء والمؤرخين والمفكرين ، وحيرت الفاتحين الكبـار ، وأذهلت نابليون بونابرت أعظمهم ، وله تصريح في ذلك نقله عنه « لاكاس » الذي رافقه إلى جزيرة « سانت هيلانة » وغيره من المقيدين لحوادث نابليون المتبعين لأقواله فقد ثبت ثبوتـاً قطعيـاً من أقوال ذلك الفاتح العظيم وسيرته أيام كان بمصر انه كان معجباً بمحمد وعمر وبكثير من أبطال الإسلام وان نفسه حدثته لما كان بمصر أن يتخذ الإسلام ديناً له .

فالقرآن قـد أنشأ إذاً العرب نشأة مستأنفـة وخلقهم خلقاً جديداً وأخرجهم من جزيرتهم والسيف في إحدى اليدين والكتاب في الاخرى يفتحون ويسودون ، ويتمكنون في الارض بطولها وعرضها .

ولا عبرة بما يقال في شأن العرب قبل الإسلام ، وما يروى من فتوحات لهم ومدنيات أثيلة ، وما ينوّه به من أخلاق عظام في الجاهلية ، فهذه ولا جدال قد كانت ولا تزال آثارها ظاهرة ، ولا شك في مدنية العرب القديمة وانها من أقدم مدنيات العالم على الاطلاق ، ومما يرجح ان الكتابة قد بدأت عندهم ، وانه لو فرض ان الفينيقيين الذين اخترعوا الكتابة في العالم فالفينيقيون في الحقيقة أمة سامية عربية ، ولكن دائرة تلك المدنية كانت محدودة مقصورة على الجزيرة وما جاورها . وقد أتى على العرب حين من الدهر سادهم الغرباء في ارضهم ، وأذلهم الاجانب في عقر دارهم ، كالفرس في اليمن وعمان والحيرة ، وكالحبشة في اليمن ، وكالروم في اطراف الحجاز ومشارف الشام. والحقيقة انهم لم يستقلوا استقلالاً حقيقياً واسعاً إلا بالاسلام ، ولم تعرفهم الأمم البعيدة وتخنع لهم الممالك العظام والقياصرة والاكاسرة وتتحدث بصولتهم الناس ولم يقعدوا من التاريخ المقعد الذي أحلهم في الصف الاول من الأمم الفاتحة إلا بمحمد ﷺ .

فالسبب الذي به نهضوا وفتحوا ، وسادوا وشادوا ، وبلغوا هذه المبالغ كلها من المجد والرقي ، يجب علينا ان نبحث عنه وننشده ، ونخفي المسألة ونمعن في النشدان: أهو باق في العرب وهم قد تأخروا برغم وجوده وتأخر معهم تلاميذهم الذين هم سائر المسلمين ، أم قد ارتفع هذا السبب من بينهم ، ولم يبق من الايمان إلا اسمه ، ومن الإسلام إلا رسمه ، ومن القرآن إلا الترنم به ، دون العمل بأوامره ونواهيه ، إلى غير ذلك مما كان في صدر الملة وعنجهيه الشريعة .

فقد المسلمين السبب الذي ساد به سلفهم :

إذا فحصنا عن ذلك وجدنا ان السبب الذي به استقام هذا الامر قد أصبح مفقوداً بلا نزاع ، وان كان بقي منه شيء كباقي الوشم في ظاهر اليد

فلو كان الله تعالى وعد المؤمنين بالعزة بمجرد الاسم دون الفعل لكان يحق لنا أن نقول : أين عزة المؤمنين ؟ من قوله تعالى :

وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ (١) .

ولو كان الله قد قال :

وكانَ حَقاً عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢) .

بمعنى انه ينصرهم بدون أدنى مزية فيهم سوى انهم يعلنون كونهم مسلمين، لكان ثمة محل للتعجب من هذا الخذلان بعد ذلك الوعد الصريح بالنصر . ولكن النصوص التي في القرآن هي غير هذا، فالله غير مخلف وعده، والقرآن لم يتغير ، وإنما المسلمون هم الذين تغيروا ، والله تعالى أنذر بهذا فقال :

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (٣) .

فلما كان المسلمون قد غيروا ما بأنفسهم كان من العجب أن لا يغير الله ما بهم ، وان لا يبدلهم الذل والضعة ، من ذلك العز وتلك الرفعة ، بل كان ذلك يُعَدُّ منافياً للعدل الإلهي . والله عز وجل هو العدل المحض .

كيف ترى في أمة ينصرها الله بدون عمل ويفيض عليها الخيرات التي كان يفيضها على آبائها ، وهي قد قعدت عن جميع العزائم التي قد كان يقوم بها آباؤها ؟ وذلك يكون أيضاً مخالفاً للحكمة الإلهية والله هو العزيز الحكيم.

---

(١) المنافقون : من الآية ٨ ،

(٢) الروم : من الآية ٤٧ ،

(٣) الرعد : من الآية ١٢ .

وما قولك في عزة دون استحقاق ، وفي غلة دون حرث ولا زرع ، وفي فوز دون سعي ولا كسب ، وفي تأييد دون أدنى سبب يوجب التأييد ؟

لا جرم ان هذا مما يغري الناس بالكسل ، ويحول بينهم وبين العمل ، بل مما يخالف النواميس التي أقام الله الكون عليها وهو مما يستوي به الحق والباطل ، والضار والنافع ، والموجب والسالب ، وحاشا الله ان يفعل ذلك . ولو أيد الله مخلوقاً بدون عمل لأيد من دون يجعل محمداً رسوله ولم يحوجه إلى القتال والنزال والنضال ، واتباع سنن الكون الطبيعية للوصول إلى الغاية .

وتصور أمة لله عندها مائة وهي تؤدي من المئة خمسة فقط ، أتعد نفسها قد أدت ما عليها وهي تطمع في ان يكافئها الله كما كان يكافىء أجدادها الذين كانوا يؤدون المائة مائة ، وإن قصروا عن المائة أدوا بالأقل تسعين او ثمانين منها ؟ كل هذا مخالف لما وعد الله على رسله ومخالف للعقل والمنطق ، ومخالف لحكمة التشريع ، وليس هذا هو الشرط الذي شرطه الله على المؤمنين ، وليس هذا هو البيع الذي يستبشر به المؤمنون .

قال الله تعالى :

إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلإِنْجِيلِ وَٱلْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِن

ٱللَّهِ ؟ فَٱسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ . وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١) .

فأين حالة المسلمين اليوم من هذا الوصف الذي في كتاب الله ؟ وأين حالتهم من سلفهم الذين كانوا يتهافتون على الموت الأحمر لإحراز الشهادة وكثيراً ما كانوا ينشدون الموت ولا يجدونه ؟ وكان فارسهم بكر وهو يقول: إني لأشم ريح الجنة ، ثم لا يزال يكر ويخوض غمرات الحرب حتى إذا استشهد قال : هذا يوم الفرح ، وإذا فاتته الشهادة برغم حرصه عليها عاد إلى قومه حزيناً كئيباً .

المقابلة بين حالي المسلمين والافرنج اليوم :

اليوم فقد المسلمون أو أكثرهم هذه الحماسة التي كانت عند آبائهم ، وإنما تخلق بها اعداء الإسلام الذين لم يوصهم كتابهم بها ، فتجد أحنادهم تتوارد على حياض المنايا سباقاً ، وتتلقى الأسنة والحراب عناقاً ، ولقد كان مبلغ مفاداتهم بالنفائس وتضحيتهم للنفوس في الحرب العامة فوق تصور عقول البشر ، كما يعلم ذلك كل أحد ، فالالمان فقدوا نحو مليوني قتيل ، والفرنسيون فقدوا مليوناً واربعمائة ألف قتيل ، والانكليز فقدوا ستمائة ألف قتيل ، والطليان فقدوا أربعمائة وستين ألف قتيل ، والروس هلك منهم ما يفوق الاحصاء وهلم جراً . هذا من جهة النفوس ، وانكلترا بذلت سبعة مليارات من الذهب (أي سبعة آلاف مليون جنيه) وفرنسة بذلت نحو مليارين ، والمانيا أنفقت ثلاثة ، وايطالية أنفقت خمسمائة مليون ، وروسية أنفقت ما أوقع فيها المجاعة التي آلت إلى الثورة ثم إلى البلشفة ، وهلم جراً .

---

(١) التوبة : ١١١ .

ـ فليقل لي قائل : أية أمة مسلمة اليوم تقدم على مـــا أقدم عليه هؤلاء النصارى من بيع النفوس وإنفـاق الأموال بدون حساب في سبيل أوطانهم ودولهم حتى نعجب نحن لماذا آتاهم الله هذه النعمة والعظمـة والثروة وحرم المسلمين اليوم أقل جزء منها ؟

وقد يقال : إن المسلمين فقراء ليس عندهم هـذه الأموال لينفقوا هـذا الانفاق كله . فنجيب بأننـا نوزع هـذه النفقات على الأوروبيين بنسبة رأس المال لا نكلف المسلمين إلا الانفـاق مثل الاوروبيين على هـذه النسبة ، فهل تسخو الأمم الإسلامية الحاضرة بمـا تسخو الأمم الاوروبية التي منهـا من قد أنفقت في الحرب العامة أكثر من نصف ثروتها ؟

الجواب : لا. ليس في المسلمين اليوم من يفعل ذلك لا أفراداً ولا أقواماً، ونذر في المسلمين من ينفق الزكاة الشرعية .

وقد يقال : إن الأمة التركية وهي أمة مسلمة قد أنفقت كل ما تقدر عليـــه في حرب اليونان ولم تقصر عن شأو الاوروبيين في المفاداة بالأنفس والنفائس .

والجواب : نعم .

قد كان ذلـك . ومن الترك من بذل ثلث ثروتـه ومنهم من بذل نصف ثروته في هذه الحرب ، ولكنهم لما فعلوا ذلك انقلبوا بنعمة من الله وفازوا، وحرروا أنفسهم واستقلوا ، وارتفعوا بعـد أن كانوا هووا ، وعزوا بعد أن كانوا ذلوا . إذاً الأمم الإسلامية إذا ائتمرت في المعاداة بما أمرها به كتابها كما كان يفعل آباؤهـا ، او اقتدت على الاقل بمـا هو دأب الاوروبيين اليوم من بذل النفوس والنفائس في سبيل حفظ بيضتها ، وذود المعتدين عنها ، لم تقطف من ثمرات التضحية إلا مثل ما قطفه غيرها . وانقلبت بنعمة من الله وفضل لم يمسسها سوء .

ولكن الامم الإسلامية تريد حفظ استقلالها بدون مفاداة ولا تضحية ، ولا بيع أنفس ولا مسابقة إلى الموت ، ولا مجاهدة بالمـــال ، وتطالب الله بالنصر على غير الشرط الذي اشترطه في النصر [1] فإن الله سبحانه يقول :

وَلَيَنْصُرَنَّ ٱللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ [2] . ويقول : إِنْ تَنْصُرُوا ٱللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ [3] .

ومن المعلوم ان الله تعالى غير محتاج إلى نصرة احد ، وإنما يريد بنصرته تعالى اطاعة أوامره واجتناب نواهيه . ولكن المسلمين اهملوا جميع ما أمرهم به كتابهم (في ذلك) او اكثره ، واعتمدوا في استحقاق النصرة على كونهم مسلمين موحدين ، وظنوا ان هذا يغنيهم عن الجهـــاد بالانفس والاموال . ومنهم من اعتمد على الدعاء والابتهـال لرب العزة لانه يجـده أيسر عليه من القتل والبذل . ولو كان مجرد الدعاء يغني عن الجهاد لاستغنى به النبي ﷺ وصحابته وسلف هذه الامة فإنهم الطبقة التي هي أولى بأن يسمع الله دعاءها . ولو كانت الآمال تبلغ بالادعية والاذكار ، دون الاعمال والآثار ، لانتقضت سنن الكون ، وبطل التشريع ولم يقل الله تعالى :

وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى [4] .

---

(١) المنار : يراجع تفصيل هذه المسألة في اجزاء تفسير المنار تجده بدلالة الفهارس في مواضع من اكثرها ، منها ١٣ موضعاً في الجزء الرابع منه و ٧ مواضع في الجزء الثاني ، وآخرها في آخر الجزء التاسع ولها مزيد في بضع مواضع من الجزء العاشر (ر) .

(٢) الحج : ٤٠

(٣) محمد : من الآية ٧ .

(٤) النجم : ٣٩ .

ولم يقل :

وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ [1] .

ولم يقل للمعتذرين عن القتال :

لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ [2] .

ولم يقل :

أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ [3] .

لقد ظن كثير من المسلمين انهم مسلمون بمجرد الصلاة والصيام وكل ما لا يكلفهم بذل دم ولا مال ، وانتظروا على ذلك النصر من الله . وليس الامر كذلك فإن عزائم الإسلام لا تنحصر في الصلاة والصيام، ولا في الدعاء والاستغفار ، وكيف يقبل الله الدعاء ممن قعدوا وتخلفوا ، وقد كان في وسعهم أن ينهضوا ويبذلوا [4] .

---

(١) التوبة : من الآية ١٠٦ .

(٢) التوبة : من الآية ٩٤ .

(٣) آل عمران : من الآية ١٩٥ .

(٤) يظهر ان الامير لم يقرن الزكاة بالصلاة والصيام لعلمه بأن أكثرهم تركها وهي ركن الاسلام الدنيوي المادي ، والصلاة ركنه الروحي ، وهم يطلبون الدنيا ويتركون من الاسلام أهم أركانها — الزكاة والجهاد بالمال والنفس في سبيل الله — وقد وصف الله المؤمنين الصادقين بالجهاد بأموالهم وأنفسهم فقدم ذكر المال وقال في سياق آيات القتال :

(وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) أي بعدم الانفاق وقد قاتل الصحابة (رض) من منع الزكاة ولم يعتدوا باسلامهم بدونها (ر) .

اعتذار المسلمين عن أنفسهم ورده :

يقولون : ليس عند المسلمين ما عند الافرنج من الثروة والسعة لينفقوا في أعمال الخير وفي مساعدة بعضهم بعضاً . فنقول لمن يحتج بهـذه الحجة إننا نرضى منهم أن ينفقوا على نسبة رؤوس أموالهم كما تقدم الكلام عند ذكر الجهاد بالمال . فهل المسلمون فاعلون ؟

إننا نراهم قد محوا رسوم الأوقاف والمؤسسات الخيرية التي تركها آباؤهم ، فضلاً عن كونهم لا يتبرعون بأموالهم الخاصة ولا يجرون مع الاوروبيين في ميدان من جهة التبرع لأجل المشروعات العامة ، فكيف يطمع المسلمون أن تكون لهم منزلة الاوروبيين في البسطة والقوة والسلطان ، وهم مقصرون عنهم بمراحل في الإيثار والتضحية ؟ فان العمل لأجل السلطان في الأرض ، أشبه بالحرث في الأرض ، فبقدر ما تشتغل فيها هي تعطيك. وإن قصرت في العمل قصرت هي في الثمر ، والمسلمون يريدون سلطاناً يشبه سلطان الاوروبيين بدون إيثار ولا بذل ، ولا فقد شيء من لذائذهم ، وينسون ان الله تعالى يقول :

وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّابِرِينَ (١) .

وقد يقولون : إننا جربنا البذل والتضحية ، وابتلينا بالنقص من الاموال والأنفس والثمرات وصبرنا ولم يفدنا ذلك شيئاً ، وبقي الاوروبيون مسلطين علينا ، إني أنقل هذا القول عن بعضهم لأني قد سمعته كثيراً .

والجواب : هل يقدرون أن يقولوا لنا أن ما يدعونه من البذل والتضحية

---

(١) البقرة : ١٥٥ .

يشبه شيئاً مما يقوم به النصارى واليهود من هذا القبيل ؟ او انه إذا نسب اليه تكون نسبته نسبة الواحد إلى المائة ؟

عندنا مثال حديث العهد هو مسألة فلسطين : حدثت وقائع دموية بين العرب واليهود في فلسطين فأصيب بها أناس من الفريقين فأخذ اليهود في جميع أقطار الدنيا يساعدون المصابين من يهود فلسطين ، وأراد العالم الإسلامي أن يساعد عرب فلسطين كما هو طبيعي ، فبلغت تبرعات اليهود لأبناء ملتهم من فلسطين مليون جنيه ، وبلغت تبرعات المسلمين كلها ١٣ ألف جنيه أي نحو جزء من مائة [١] .

فسيقولون : ان المسلمين لا يملكون مثل ثروة اليهود . ونعود فنجيبهم نرضى منهم بأن ينفقوا في مساعدة ملتهم على قدر اليهود والافرنج بالنسبة إلى رؤوس أموالهم ، ولا نطالب منهم الفقراء الذين لا يملكون ما يزيد على كفاية عائلاتهم .

---

(١) عنيت بهذه الواقعة الفتنة التي جرت سنة ١٩٢٩ ميلادية وكان مجموع ما أعان به العرب اخوانهم في فلسطين ثلاثة عشر الف جنيه لا غير إلا أن حوادث الدهر علمت المسلمين وأيقظتهم ونيران المصائب والخطوب أحسنت سبكهم . ففي هذه السنوات العشر الاخيرة بدأوا يقتدون باليهود والاوروبيين في البذل وساروا فيه على أثرهم وان كانوا لا يزالون في اول الطريق ولقد أحصيت اعانات العرب لاخوانهم في فلسطين بين سنتي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ فزادت على ما كان يحصل من قبل ولكن هذه الاعانات أثمرت ثمرها وثبتت أقدام العرب في وجه الانكليز واليهود حتى اضطر الانكليز الى سوق ٣٠ الف جندي هم في نضال مستمر من سنتين الى الآن مع العرب ووراءهم قوى عظيمة من البوليس واليهود المسلحين والخائنين من العرب أنفسهم ومن قوة شرقي الأردن ، ولم يتمكنوا من اخماد الثورة ولا حصلوا على طائل ، وعادت الانكليز فنكصت على أعقابها ورضيت بعقد مؤتمر في لندرة تحضره وفود الدول العربية لمساعدتها على حل المعضلة الفلسطينية ورجعت عن برنامجها الاول وهو اعطاء فلسطين لليهود راضية بأن يكون هؤلاء ثلث عدد السكان لا يزيدون على الثلث فهذا التحول نتيجة المقاومة وهذه المقاومة إنما كانت نتيجة البذل والسماح واستصغار الدنيا ، ومن استصغر الدنيا كبرت لديه ، ومن هانت عليه الحياة جاءته الحياة تسعى على رجليها سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا (ش) .

قال الله تعالى :

لَيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَى وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ (١) .

ثم قال تعالى :

إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ (٢) .

ونجيب أيضاً :

إنه وإن كان اليهود أغنى بالأموال من المسلمين فالمسلمون اكثر جداً بالعدد، لان اليهود عشرون مليوناً، والمسلمين نحو من أربعمائة مليون(٣). فلو ان كلاً من المسلمين تبرع لفلسطين بقرش واحد — وهو الذي لا يعجز عنه أحد في العالم مهما اشتد فقره — لاجتمع من ذلك ثلاثة ملايين جنيه ونصف .

---

(١) التوبة : من الآية ٩١ .

(٢) التوبة : من الآية ٩٣ .

(٣) بعد ان ثبت بالاحصاء الرسمي ان مسلمي الصين خمسين مليون نسمة تحقق ان مسلمي المعمور كله لا يقلون عن اربعمائة مليون منهم ٢٤ مليوناً من العرب في آسية و ١٧ مليوناً من الترك في الاناضول و ١٦ مليوناً في ايران و ١٠ ملايين في افغانستان و ٨٥ مليوناً في الهند و ٥٦ مليوناً في الجاوى و ٢٥ مليوناً في الروسية وثلاثة ملايين في أوروبة و ٥٠ مليوناً في الصين ومائة مليون في افريقية .

فلنترك تسعة أعشار المسلمين ونفرض هذه الاعانـــة لفلسطين على عشر واحد منهم أي على ٣٥ مليون نسمة لا غير . وهؤلاء الخمسة والثلاثون مليون نسمة نجدهم حول فلسطين في لمحة بصر. فإن مسلمي مصر وسورية وفلسطين والعراق ونجد والحجاز واليمن وعمان هم ٣٥ مليونـاً . ولنتقاض من هؤلاء أداة قرش واحد عن كل جمجمة ، فماذا يجتمع لنا من ذلك ؟

الجواب : يجتمع ثلاثماية وخمسون ألف جنيه .

فالمسلمون قد تبرعوا عن هذه الاعداد كلها بثلاثة عشر ألف جنيه أي بما يساوي نحو ثلثي عشر القرش عن كل نسمة من عشر عددهم .

أهذا ما تريدون أن تسموه « تضحية » ؟

أو بمثل هذا تجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ؟

أو هذه درجة نجدتكم لاخوانكم في الدين وجيرانكم في الوطن والقائمين عنكم بالدفاع عن المسجد الأقصى الذي هو ثالث الحرمين وأول القبلتين ؟ أفلم يقل الله تعالى :

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ (١) .

أفهذه نجدة الأخ لأخيه ؟

يقولون : لمـــاذا سادت الأمة الانكليزية هـذه السيادة كلها في العالم ؟ نجيبهم : انها سادت بالاخلاق والمبادىء الوطنية العـالية . حدثني رجل ثقة أنه يعرف انكليزياً ذا منصب في الشرق كان يـأمر خادمـه ان يشتري له الحوائج اللازمة لبيته يومياً من دكان رجل انكليزي في البلدة التي هم فيها .

---

(١) الحجرات : من الآية ١٠ .

فجاءه الخادم مرة بجدول حساب وفر عليه به ٢٠ جنيهاً في شهر . فسأله الانكليزي : كيف امكنك هذا التوفير ؟

فقال الخادم : تركنا دكان الانكليزي الذي كنا نشتري منه وصرنا نشتري من دكان أحد الاهالي من العرب .

فقال له الانكليزي : ارجع الى دكان الانكليزي الذي كنا نشتري منه.

فقال الخادم : أو لو كان ذلك يستلزم انفاق ٢٠ جنيهاً زيادة ؟

قال الانكليزي : ولو كان ذلك يستلزم انفاق ٢٠ جنيهاً زيادة .

وسمعت أن كثيرين من الانكليز الذين في الاقطار لا يشترون شيئاً ذا قيمة إلا من بلادهم ويرسلون إلى لندرة فيوصون على كل ما يحتاجون اليه حتى لا يذهب مالهم إلى الخارج .

أفنقيس هذا بأعمال المسلمين الذين مهما أوصيتهم بالشراء من أبناء جلدتهم او اوطانهم وعلموا أنهم يقدرون ان يوفروا في السلعة الواحدة نصف قرش إذا أخذوها من الافرنجي تركوا ابن جلدتهم أو ملتهم ورجحوا الافرنجي ؟ أفلم يكن سبب حبوط مقاطعة العرب لليهود في فلسطين أشياء كهذه [١] ؟ حرموا أنفسهم أمضى سلاح في يدهم وهو المقاطعة في الأخذ والعطاء مع اليهود من أجل فروق تافهة موقتة ونسوا أن الضرر الذي يصيبهم من الأخذ والعطاء مع اليهود هو أعظم ألف مرة من ضرر هاتيك الفروق الزهيدة .

---

(١) اما الآن فقد أصبح السواد الأعظم منهم يبذلون النفوس والنفائس في الدفاع عن وطنهم فلسطين وأتوا في هذه السبيل بما ارتفعت له رؤوس العرب جميعاً ولو ان هذه المناداة ظهرت منهم من أول الأمر ما وصلت المصيبة الى هذا الحد (ش) .

نتائج اعانة مصر لمجاهدي طرابلس وبرقة :

وكنت مرة أشكو إلى أحد كبار المصريين إهمال اخواننا المصريين لمجاهدي طرابلس وبرقة الذين إن لم تجب عليهم نجدتهم قياماً بواجب الاخوة الإسلامية والجوار ، وجبت عليهم احتياطاً من وراء استقلال مصر واستقبال مصر ، لانه كما ان وجود الانكليز في السودان هو تهديد دائم لمصر ، فوجود الطليان في برقة هو تهديد دائم لها أيضاً .

فكان جواب ذلك السيد لي : لقد بذل المصريون مبالغ وفيرة يوم شنت ايطالية الغارة على طرابلس ولم يستفيدوا شيئاً فان ايطالية لم تلبث أن أخذتها .

فقلت له : إن المصريين قد نهضوا في الحرب الطرابلسية نهضة هي دون شك ترضي كل مسلم بل ترضي كل إنسان يقدر قدر الحمية ، ولكن المبلغ الذي تبرعوا به يومئذ معلوم وهو ١٥٠ الف جنيه .

فهل يطمع المسلمون في أنحاء المعمور أن ينقذوا طرابلس من براثن إيطالية بمائة وخمسين الف جنيه؟ وهل هذه التضحية تقاس في كثير أو قليل إلى التضحيات التي قامت بها إيطالية بالمال والرجال ؟

كانت إعانة مصر في الحرب الطرابلسية ١٥٠ الف جنيه وانفقت الدولة العثمانية على تلك الحرب نحو مليون جنيه .

فانظر إلى ما كان لذلك من النتائج .

(النتيجة الأولى) وهي أهم شيء: حفظ شرف الإسلام وافهام الاوروبيين أن الإسلام لم يمت وأن المسلمين لا يسلمون بلدانهم بلا حرب وفي ذلك من الفائدة المادية والمعنوية للاسلام ما لا ينكره إلا كل مكابر .

(النتيجة الثانية) ان هذا المبلغ الضئيل بالنسبة إلى نفقات الدول الحربية قد كان السبب في توطين الطرابلسيين أنفسهم على المقاومة والمجاهدة بما رأوا من نجدة اخوانهم لهم . فكانت هذه المقاومة سبباً لتجشم إيطالية المعتدية من المشاق والخسائر ما هو فوق الوصف إلى أن صار كثير من ساسة الطليان يصرحون بندمهم على هذه الغارة الطرابلسية .

(النتيجة الثالثة) مهما يكن من عدد القتلى الذين فقدهم العرب في هذه الحرب فان مجموع قتلى الطليان إلى اليوم يفوق مجموع قتلى العرب أضعافاً مضاعفة .

فلقد لقي الطليان في هذه الحرب من الاهوال ما لا يتسع لوصفه مقالة أو رسالة . وفي واقعة واحدة هي واقعة « الفويهات » على باب بنغازي ثبت فيها ١٥٠ مجاهداً عربياً لثلاثة آلاف جندي طلياني من الفجر إلى غروب الشمس إلى ان انقرضوا جميعاً ، إلا أفذاذاً أتى عليهم الليل ، ورجع العدو ولما يموتوا : وبينما كان العرب في حزن عظيم على من فقدوهم في تلك المعركة إذ جاءهم الخبر البرقي من الاستانة عن برقية وردت سراً من برلين عن برقية رقمية جاءت من سفارة الالمان في رومية بأنه سقط في هذه المعركة الف وخمسمائة جندي من الطليان وأصاب الجنون سبعة من ضباطهم .

وهذه وقعة من خمسين وقعة بالأقل تضاهيها، فالمسلمون قد قاتلوا في هذه المعركة جيشاً يفوقهم في العدد عشرين ضعفاً وقتلوا نصفه أي قتلوا عشرة أضعافهم — والله تعالى قد قدر لهم في حال القوة ان يغلبوا عشرة أضعافهم وفي حال الضعف أن يغلبوا ضعيفهم فقط كما قال في سورة الأنفال [1] :

---

(١) الآية ٦٦ .

يَأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مَائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مَائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * ٱلْآنَ خَفَّفَ ٱللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مَائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مَائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللهِ وَٱللهُ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ .

(النتيجة الرابعة) انه قد كانت نفقات ايطاليا في الحرب الطرابلسية في السنة الاولى منها أي من سنة ١٩١١ إلى سنة ١٩١٢ نحو مائة مليون جنيه ، ويظن انها من عشرين سنة إلى اليوم—إذ المقاومة لم تنقطع حتى هذه الساعة— قد بلغت ثلاثمائة مليون جنيه [١] .

فهذا كان كله نتيجة تلك الاعانات القليلة والنفقات الضئيلة التي قام بها المسلمون في تلك الحرب ، ولكن المسلمين ينتظرون ان تنهزم ايطالية الدولة الكبيرة التي أهلها ٤٤ مليون نسمة ودخلها السنوي ٢٠٠ مليون جنيه في

---

(١) أما في هذا العهد فقد انقطعت المقاومة بالسلاح وكان آخر من قاوم الطليان بالسلاح الشهيد والمجاهد الكبير عمر المختار رحمه الله الا ان الطرابلسيين لا يزالون يقاومون الاستعمار الطلياني كما يقاوم التونسيون وسائر المغاربة الاستعمار الفرنسي ومن العبث ان تظن دول الاستعمار اخماد الحركات الوطنية بالعسف والقهر والقتل والنفي والحبس فكل هذا لا يزيد المسلمين إلا عداء وما استصلح عدو بمثل العدل (ش) .

صدمة واحدة أو في السنة الأولى من الحرب [1] وإن لم يتحقق أملهم هـذا انقطع منهم كل رجاء وبطلت كل حركة ، وأصاب بعضهم اليـأس الذي هو مرادف للكفر بصريح الذكر الحكيم .

إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ ٱللهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَافِرُوْنَ [2] .

---

(١) أي هذا عددها ، وهذا دخلها ، وهذا انفاقها على الحرب وأما عصبيتها وضراوتها في سفك دماء المسلمين فحسب المسلم الذي لم يفسده التفرنج والالحاد ان يقرأ النشيد الطلياني الذي ننقل ترجمته عن جريدة الفتح نقلاً عن جريدة الشرق عدد ٥٤٣ وهو :

النشيد الطلياني في التحريض على قتال المسلمين ومحو القرآن .

إن من أعظم الآلام لشاب في العشرين من عمره ان لا يحارب في سبيل وطنه مع دوام القتال في طرابلس ، والراية المثلثة الالوان والموسيقى الحربية تنبهان النفس المقدامة . يا أمـاه أتمي صلاتك ولا تبكي ، بل اضحكي وتأملي ، ألا تعلمين أن ايطالية تدعوني وانا ذاهب الى(طرابلس) فرحاً مسروراً لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة (كذا) ولأحارب الديانة الاسلامية التي تجيز البنات الأبكار للسلطان (*) .

سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن (كذا) .

ليس بأهل للمجد من لم يمت ايطالياً حقاً .

تحمسي أيتها الوالدة ، تذكري (كاروني) التي جادت بأولادها في سبيل وطنها : —

يا أماه انا مسافر . ألا تعلمين ان على الامواج الزرقاء الصافية من بحرنا ستلقي سفائننا المراسي؟ انا ذاهب الى طرابلس مسروراً لان رايتنا المثلثة الالوان تدعوني . وذلك القطر تحت ظلها . =

(٢) يوسف : من الآية ٨٧ .

(*) الديانة الاسلامية لا تجيز للسلطان إلا ما تجيزه لغيره من المسلمين ، وهو تزوج البكر والثيب ، ولكن الافرنج تبيح لهم نصرانيتهم الافتراء على الاسلام وتبيح لهم مدنيتهم الزنا حتى أفسدوا كل قطر دخلوه ببغاياهم لا سيما الطليان منهم (ر) ،

ولنضرب مثـــلاً ثالثاً ونمسك بعده عن ضرب الامثال لانها لا تعد ولا تحصى :

قام أهل الريف المغربي في وجه الدولة الاسبانية مدة بضع سنين إلى ان تغلبوا عليها وطردوا جيوشهابعد ان أبادوا منهم في واقعة واحدة ٢٦ الف جندي وغنموا ١٧٠ مدفعاً مع ان جميع اهل الريف بقضهم وقضيضهم ثمانمائة الف نسمة . وعدد اهالي اسبانية ٢٢ مليون نسمة ، واراضي الريف اكثرها قاحل والاهـــالي فيه فقراء يعيشون من كسب ايديهم ، ولقد قاموا بعمل أدهش اهل الارض بالطول والعرض .

فلو كان اهل الريف نصارى لانثالت عليهم الملايين من الجنيهات من كل الجهـــات اما بطريقة خفية وإما بواسطة جمعية الصليب الاحمر في سبيل مداواة جرحاهم .

فليقل لنا المسلمون كم جنيهاً قدموا للريف في ذلك الوقت ؟

ثم تألب الفرنسيس مع الاسبانيين وحشدوا لحرب الريفيين ٣٠٠ الف مقاتل وحصروا الريف من كل جانب من البر والبحر وكانت طياراتهم القاذفة بالديناميت على قرى الريفيين تحصى بالمئات لا بالعشرات ولم تكف طيارات الفرنسيس والاسبانيول حتى جاء سرب طيارات اميركية من نيويورك نجدة لفرنسة واسبانية (النصرانيتين على المسلمين لانهم مسلمون) .

= لا تموتي لاننا في طريق الحياة ، وإن لم ارجع فلا تبكي على ولدك ولكن اذهبي في كل مساء وزوري المقبرة ونسائم الاصيل تحمل الى طرابلس وداعك الذي لا يأبى الحداد على قبره فلذة كبدك ، وإن سألك احد عن عدم حدادك علي فأجيبيه : إنه مات في محاربة الاسلام .

الطبل يقرع يا أمـــاه ، انا ذاهب ايضاً . ألا تسمعين هزج الحرب ، دعيني اعانقك وأذهب ! (ر) .

هذا كله والمسلمون ينظرون إلى حرب الريف مكتوفي الايدي ، ولبثوا مكتوفي الايدي مدة سنة واخيراً نهض منهم افراد لجمع شيء من اجل جرحى الريف ، ولأجل بعث الحمية في الناس لم يكتف محرر هذه السطور بالكتابة بل تبرع بأربعة جنيهات لاجل القدوة ، فماذا كان مجموع تلك الاعانات من كل العالم الإسلامي ؟ الجواب ١٥٠٠ جنيه لا غير . فهل من خذلان بين المسلمين يفوق هذا الخذلان !

خيانة بعض المسلمين لدينهم ووطنهم واعتذارهم الباطل :

ويا ليت المسلمين وقفوا عند هذا الحد في خذلان الريفيين بل قامت منهم فئات يقاتلون الريفيين بأشد مما يقاتلون به الاجانب ، وتألبت على محمد بن عبد الكريم قبائل وافرة العدد شديدة البأس مالأوا الفرنسيس والاسبانيول على أبناء ملتهم ووطنهم تزلفاً إلى الفرنسيس والاسبانيول وابتغاء الحظوة لديهم . وقد جرى مثل ذلك عندنا في سورية يوم الثورة على فرنسة ، وجرى في بلاد إسلامية كثيرة[1] ، أفبمثل هذه الاعمال يطالب أخونا الشيخ بسيوني عمران ربه بما وعد تعالى به من جعل العزة للمؤمنين ؟

وإذا سألت هؤلاء المسلمين المالئين للعـــدو على اخوانهم : كيف تفعلون مثل هذا وأنتم تعلمون أنه مخالف للدين وللشرف وللفتوة وللمروءة والمصلحة

---

(١) والآن عساكر شرقي الاردن وهم من العرب يقاتلون بكل شدة مجاهدي فلسطين الذين هم اخوانهم في النسب والمذهب وهم يعلمون ان هؤلاء المجاهدين إنما يذودون عن حياض العروبة والاسلام ويجودون بنفوسهم لاجـــل استحياء قومهم واستبقاء وطنهم للعرب وأنه لولا هؤلاء المجاهدون لتسلم اليهود جميع فلسطين من زمن طويـــل تحت ظل حراب الانكليز فبينما دماء المجاهدين تسيل لاجل حفظ فلسطين للعرب نجد دماء عساكر عربية في شرق الاردن تسيل لأجل اخراج بلاد فلسطين وشرق الاردن نفسها بعد فلسطين من ايدي العرب .

فهل يبلغ العدو من عدوه أكثر مما يبلغ العرب من انفسهم ؟ لا والله (ش) .

وللسياسة ؟ أجابوك : كيف نصنع فان الاجانب انتدبونا ولو لم نفعل لبطشوا بنا ، فاضطررنا الى القتال في صفوفهم خوفاً منهم . ونسوا قوله تعالى :

أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١) .

وقوله تعالى :

فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مؤْمِنِينَ (٢)

وكلام مثل هؤلاء في الاعتذار غير صحيح فإن الاجانب قد ندبوا كثيراً من المسلمين إلى خيانات كهذه فلم يجيبوهم ولم تنقض عليهم السماء من فوقهم ، ولا خسفت بهم الأرض من تحتهم ، ثم انه إن كان الأجانب المحتلون لبلاد المسلمين قد أصبحوا يغضبون على المسلمين الذين لا يلبون دعوتهم إلى خيانة قومهم ، فإنما كان ذلك من أجل كثيرين من المسلمين كانوا يعرضون عليهم خدمتهم في مقاومة اخوانهم ويقومون بها بكل نشاط ومناصحة ، ويبدون كل امانة لهم في أثناء تلك الخيانة . ولولا هذا التبرع بالخيانة ، والتسرع إلى مظاهرة الأجنبي على ابن الملة ، لما استأسد الأجنبي وصار يتحكم في المسلمين هذا التحكم الفاحش ، ويتقاضاهم أن يخالفوا قواعد دينهم ومقتضى مصلحة دنياهم من أجل مصلحته ، بل قام يحملهم على الموت لأجل الموت .

فإن الموت موتان : أحدهما الموت لأجل الحياة وهو الموت الذي حث

---

(١) التوبة : من الآية ١٤ .

(٢) آل عمران : من الآية ١٧٥ .

عليه القرآن الكريم المؤمنين إذا مد العدو يده اليهم وهو الموت الذي قال عنه الشاعر العربي :

تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقي ٱلْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ
لِنَفْسِي حَيَـاةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدَّما

وهو الموت الذي يموته الافرنسي لأجل حياة فرنسة ، والالماني لأجل حياة المانية ، والانكليزي في سبيل بريطانيا العظمى — وهلم جراً — ويجده على نفسه واجباً لا يتأخر عن ادائه طرفة عين .

وأما الموت الثاني فهو الموت لأجل استمرار الموت ، وهو الموت الذي يموته المسلمون في خدمة الدول التي استولت على بلادهم . وذلك انهم يموتون حتى ينصروها على اعدائها كما يموت المغربي مثلاً حتى تنتصر فرنسة على المانية مثلاً . ويموت الهندي حتى تتغلب انكلترة على أي عدو لها . ويموت التتري في سبيل ظفر الروسية . والحال أنه بانتصار فرنسة على أعدائها تزداد في المغرب غطرسة وظلماً وابتزازاً لأملاك المسلمين وهضماً لحقوقهم ، وذلك كما حصل بعد الحرب العامة إذ ازداد طمع الفرنسيين في أهل المغرب وحدثوا أنفسهم بتنصير البربر ليدمجوهم في الشعب الفرنسي ويأمنوا على مستقبل المغرب الذي صاروا يطلقون عليه لقب « افريقية الافرنسية » .

وبالاختصار يموت المغربي على ضفاف الرين أو في سورية حتى يزداد موتاً في المغرب، لأن كل طائفة تفوز بها فرنسة في الخارج هي زيادة في قهر المغربي وإهانته وإذلاله مما لا سبيل للمناكرة فيه ، ومما قد ثبت بالتجربة . وكذلك موت الهندي في نصرة انكلترا هو تطويل في أجل عبودية الهند وكذلك موت التتري في خدمة الروسية لا عاقبة له سوى ازدياد قهر الروس للتتر . وهلم جراً .

وهذا الموت لأجل الموت هو ما كان بخط منحن كما يقـــال أني باعتبار النتيجة ، ولكنه هناك موت لأجـــل الموت مباشرة بدون واسطة ، وهو عندما يموت المغربي في قتال أخيه المغربي الذي قام يحاول أن يزحزح شيئاً من النير الافرنسي الذي كاد يدق عنقه ، وان لم يدق عنقه بتاتاً استحياه حياة هي أشبه بالموت منها بالحياة .

ولو انحصرت هذه الأمور في العوام والجهلاء لعذرناهم بجهلهم ، وقلنا انهم لا يدرون الكتـــاب ولا السنة ولا السياسة الدنيوية ، ولا الاحوال العصرية ، وانهم إنما يساقون كما تساق بهيمة الانعام إلى الذبح .

ولكن الأنكى هو خيانة الخواص . مثـــال ذلك الوزير المقري الذي هو أشد تعصبـــاً لقضية رفع الشريعة الإسلامية من بين الـــبربر من الفرنسيس أنفسهم [1] . ومثله البغدادي باشا فاس الذى طرح نحو مائة شخص من شبان فاس وجلدهم بالسياط لكونهم اجتمعوا في جامع القرويين وأخـــذوا يرددون دعاء : « يا لطيف ألطف بنـــا فيما جرت به المقادر ولا تفرق بيننا وبين إخواننا البرابر » ومفتي فاس الذي أفتى بأن إلغاء الشرع الإسلامي من بين البربر ليس باخراج للبربر من الإسلام وهلم جرا .

وكل من هؤلاء الخونة المارقين أخزاهم الله قد بلغ من الكبر عتياً ، وانتهى من أموال الأمة شبعاً وريـــاً . وهو لا يزال حريصاً على الزلفى إلى فرنسة ،

---

(١) ويؤكدون انه كلما ارادت فرنسا تحت تأثير سخط العالم الاسلامي ان تعدل عن الظهير البربري المقصود به إخراج البربر من الاسلام بتاتاً جاء هذا المقري يحذرها عاقبة الرجوع الى الصواب ويقول لها ان اهالي المغرب يعدون هذا منها نكوصاً وضعفاً وبعد ذلك لا يمكنها ان تثبت أقدامها في شمالي افريقية فالمقري إذاً هو اكبر مشجع للحكومة الافرنسية على المضي في سياستها البربرية التي ترمي الى تنصير البربر وادماجهم في الامة الافرنسية (ش) .

واثبات صداقته لها ولو بضياع دينه ودنياه ، حتى تبقي عليه منصبه وحظوظه في هذه البقية الباقية من حياته التاعسة [1] .

وليس واحداً من هؤلاء ولا من في ضربهم في المغرب إلا وهو مطلع على نيات فرنسة وعلى مراميها من جهة هذا النظام الجديد لأمة البربر ، وليس فيهم إلا من هو عارف بوجود جيش من القسوس والرهبان والراهبات يجوس خلال بلاد البربر ويبني الكنائس ويصيد اللقطاء والأيتام والفقراء وضعفاء الايمان [2] ، وليس فيهم إلا من هو عالم بمنع فرنسة فقهاء الإسلام والوعاظ من التجوال بين البربر حتى ترتفع الحواجز أمام دعوة المبشرين إلى النصرانية [3] وقد يكون المقري والبغدادي هذان هما في مقدمة الموقعين على الأوامر بمنع علماء الإسلام وحملة القرآن من الدخول إلى قرى البربر . وقد يكون المقري هذا هو الذي خصص المبلغ من مال المخزن لجريدة «مراكش الكاثوليكية» التي تطعن في الإسلام ، وتقذف محمداً عليه الصلاة والسلام ، ولدينا كثير من أعدادها التي تتضمن هذه المطاعن .

وبعد هذا فمن يدري ؟ فقد يكون المقري مصلياً وصائماً وبيده سبحة

---

(١) الغريب في هذا ان أمثال هؤلاء الخونة يبيعون بلادهم كلها للأجنبي بثمن خسيس دو جزء منها لا من مال الاجنبي، ولو اخلصوا في صده عنها لكان لهم منها اكثر مما يعطيهم الاجنبي منها ثم يكون باقيها لاولادهم وأهليهم واخوانهم في الدين مع العز والشرف (ر) .

(٢) ومما هو جار في المغرب ان الآذان لصلاة الفجر ممنوع في كثير من القرى التي يقطنها مستعمرو الفرنسيس وذلك لانه قد يعكر عليهم صفو رقادهم صباحاً (ش) .

(٣) وقد منعوا الوعاظ في شهر رمضان من الذهاب الى بلاد البربر وكانوا يحبسون من يخالف هذا الامر وقد اقفلوا مئات من الكتاتيب القرآنية في المغرب ومئات من مثلها في الجزائر واغلقوا دار الحديث في تلمسان واحتجت على ذلك جمعية علماء المسلمين في الجزائر فما سمعوا لها كلاماً وأصر بعض رجال الدين الاسلامي في الجزائر على تعليم القرآن للاحداث فحاكموهم وحكموا عليهم (بالسجن أربعة اشهر بحجة أنهم خالفوا الأوامر الصادرة . وهلم جراً (ش) .

يقرأ عليهـا أوراداً . ومن يدري ؟ فقد يكون البغدادي السيء الذكر ممن يتمسحون بالقبور ويستغيثون بالأولياء ويتظاهرون بهذا الورع الكاذب. وأما المفتي فهو المفتي فـلا حاجة إلى تثبيت كونه يصلي الخمس ، ويصوم ويتهجد ويوتر ويتنفل الخ .

وقد مضى علينا نحن في سورية شيء من هذا لأوائل عهد الاحتلال لكن لم تكن خيـانة هؤلاء المعلمين في قضية دينية مباشرة . فقد اقترحت عليهم فرنسة أن يمضوا برقية إلى جمعية الأمم ينكرون بها عمل المؤتمر السوري الفلسطيني المطالب باستقلال سورية وفلسطين فأمضاه منهم عمائم مكورة ، وطيالس محررة مجررة ، ورقاب غليظة ، وبطون عظيمة وان لم أقل الآن: أخزاهم الله، أخشى عتاب اخواننا المغاربة الذين يرونني خصصت بهذا الدعاء صدرهم الأعظم ، ومفتيهم الأكبر ، وأعفيت معممي سورية ، فلذلك يقضي العدل بأن نقول أخزاهم الله أجمعين، أخزى الله الذين منهم في المشرق والذين منهم في المغرب ممن يوقعون على اقتراحات الاجانب المضرة بالدين والوطن[1].

ولعل الأخ الشيخ بسيوني عمران يقول : إن هؤلاء أفراد قلائل فلا يجوز أن نجعل الأمة الإسلامية مسؤولة عن مخازيهم وموبقاتهم .

والجواب على ذلك : إن الظلم يخص والبلاء يعم كما لا يخفى ، ولكني لا أسلم ان هؤلاء افراد قلائل ، وان الامة غير مسؤولة ! إذ لو كان وراء هؤلاء أمة يخشونها ما تجاسروا على الاتجار بدينها بعد الاتجار بدنياها بل كانوا

---

(١) على انهم في السنة التالية أرادوهم على امضاء بيانات خبيثة كهذه فامتنعوا واحتجوا لدى الفرنسيس بان عملهم ذاك قـد عرضهم للاهـانة واستوجب مقت الشعب السوري لهم فهم لن يكرروا تلك الخيانة . وهذا دليل على ان الامة تقدر متى شاءت ان تقوم أود هؤلاء المشايخ وان الخائنين الخادمين لدول الاستعمار ليس لهم علاج إلا الخوف على جلودهم (ش) ،

لو اقترح عليهم الفرنسيس اقتراحاً مضراً بملتهم وأمتهم ولم يقدروا على رده اعتزلوا مناصبهم ، ولزموا بيوتهم .

وكان الفرنسيس كلفوا بالعمل غيرهم ، فإذا أبى الخلف ما أباه السلف مرة بعد مرة علم الفرنسيس ان لا فائدة في الاصرار ، فعدلوا عن دسيستهم البربرية وما أشبهها ، ولكنهم مصرون عليها بسبب استظهارهم بأناس ممن يزعمون انهم « مسلمون » فهم يهدمون الإسلام بمعاول في ايدي أبنائه ، ويقولون لسنا من هذا الامر في قبيل ولا دبير [1] .

أفـــلا ترى كيف قالوا عن الظهير البربرى إنـه قد أصدره السلطان وحكومة المخزن [2] ؟

أفهـذا هو الإسلام الذي ينـاشد الله الشيخ بسيوني عمران بتأييد أهله ؟ قال الله تعالى :

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ [3] .

---

(١) وجميع الدول المستعمرة المتسلطة على ممالك الاسلام طريقتهـــا الاستظهار على المسلمين بالمسلمين وقضية شرقي الاردن والخونة من عرب فلسطين من أنصع الشواهد على هذه الحالة .

(٢) أفلا ترى كيف انهم قتلوا في مكناسة الزيتون ٣٥ مسلماً وجرحوا ٦٠ من أجـــل مظاهرة غير مسلحة قـام بها الاهـالي احتجاجاً على سلب السلطة مياه بساتينهم من أجل اعطائها الى مستعمرة الفرنسيس وزعموا ان فعلهم هذا باسم السلطان .

ألم تر انهم اغوا الحزب الوطني المغربي وحكموا على الفين وخمسمائة شاب منهم بالحبس سنة وسنتين ونفوا علالاً الفاسي الى بلاد خط الاستواء ونفوا نخبة رجالات المغرب الى الصحراء وضربوا ضرباً مبرحاً عشرات من الادباء منهم الاستاذ محمد المقري الذي مات تحت الضرب وكل هذا باسم السلطان والسلطان لا يبدي ولا يعيد ولا يقـدر ان يدفع عن رعيته التي مرجعها الى الجنرال نوغيس واضع أساس المشروع البربري الآثم (ش) .

(٣) هود ١١٧ .

ولا شك أن « المسلمين » الذين يبلغون هـذه الدرجات من الانحطاط وتتركهم الأمة الإسلامية وشأنهم يلعبون بحقوقها يستحقون للاسلام التمحيص الذي هو فيه [1] فإنما سمح الله بأن يستولي الاجانب على ديار المسلمين ويجعلوهم خولاً ، ويغتصبوا جميع حقوقهم تعليماً لهم وتهذيباً . وتصفية وتطهيراً كما يصفى الذهب الابريز بالنار .

قال الله تعالى :

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [2] .

لقد أصبح الفساد إلى حد ان أكبر أعداء المسلمين هم المسلمون وان المسلم إذا أراد ان يخدم ملته او وطنه وقد يخشى ان يبوح بالسر من ذلك لأخيه إذ يحتمل ان يذهب هذا إلى الاجانب المحتلين فيقدم لهم بحق أخيه الوشاية التي يرجو بها بعض الزلفى . وقد يكون أمله بها فارغاً [3] .

---

(١) هكذا في الاصل ومعنى يستحقون هنا يستوجبون على قول الفارابي واللام في الاسلام للتقوية والمراد به المسلمون . والمعنى يستوجبون بجرائمهم تمحيص المسلمين في جملتهم ليميز الله الخبيث من الطيب . ويفسره ما بعده وهو مستنبط من قوله تعالى في سياق غزوة أحد :

وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ .

فليراجع السياق من سورة آل عمران وتفسيره المؤثر في الجزء الرابع من تفسير المنار (ر) .

(٢) الروم ٤١ .

(٣) لم يخل بلد من بلدان الاسلام من هؤلاء الخائنين الذين تجعلهم دول الاستعمار مطايا لها في الاستيلاء على تلك البلدان وهم يسعون بين ايديها في كل دسيسة ويدلونها على عورات المسلمين وما ينكرون انهم بهذا العمل يخونون انفسهم وما يشعرون انهم اشبه بمن يصعد على الشجرة =

ولله در الملك ابن سعود حيث يقول : مـــا أخشى على المسلمين إلا من المسلمين ، ما أخشى من الأجانب كما أخشى من المسلمين [1] .

وهو كلام اصاب كبد الصواب ، فانه ما من فتح فتحه الأجانب من بلاد المسلمين إلا كان نصفه او قسم منه على أيدي أناس من المسلمين منهم من تجسس للأجانب على قومه ، ومنهم من بث لهم الدعـاية بين قومـه ، ومنهم من سل لهم السيف في وجه قومه ، وأسال في خدمتهم دم قومه .

فأين إسلامهم وإيمانهم من قوله تعالى :

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ [2] وقوله : وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ [3] وقوله : إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ

= ويشرع يقطع جذعها من تحته فيسقط هو عنها بما كسبت يداه . قال الله تعالى :

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (ش) .

(١) وقال في محفل حافل بحجاج الاقطار – وقد طالبه مصري أزهري بمحاربة الانكليز والفرنسيس المعتدين على المسلمين ذاكراً عداوتهم لهم – الانكليز والفرنسيس معذورون إذا عادونا لانه لا يجمعنا بهم جنس ولا دين ولا لغة ولا مصلحة ، ولكن المصيبة التي لا عذر لأحد فيها ان المسلمين اصبحوا اعداء انفسهم ، وانا والله لا أخاف الاجانب وإنما أخاف المسلمين ، فلو حاربت الانكليز لما حاربوني إلا بجيش من المسلمين (ر) .

(٢) الحجرات : من الآية ١٠ .

(٣) المائدة : من الآية ٥١ .

وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ [1] وقوله : فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [2] .

أفبمثل هذا تكون طاعة الله ورسوله ؟ أم بمثله تكون اخوة الايمان وولايته وولاية أهله ؟

أو لمثل هؤلاء يعد الله العز والنصر والتمكين في الارض، وهم سعاة بين أيدي الأجانب على ملتهم ووطنهم وقومهم ؟ كلما عاتبهم الانسان على خيانة اعتذروا بعدم إمكان المقاومة ، أو باتقاء ظلم الأجنبي ، او بارتكاب أخف الضررين ؟ وجميع أعذارهم لا تتكىء على شيء من الحق ، ولقد كانوا قادرين أن يخدموا ملتهم بسيوفهم فان لم يستطيعوا فبأقلامهم ، فان لم يستطيعوا فبألسنتهم ، فان لم يستطيعوا فبقلوبهم [3] ، فأبوا إلا أن يكونوا بطانة للأجانب على قومهم ، وأبوا إلا أن يكونوا رواداً لهم على بلادهم ، وأبوا إلا أن يكونوا مطايا للأجانب على أوطانهم. وتراهم مع ذلك وافرين ناعمي البال ، متمتعين بالهناء وصفاء العيش ، وهم يأكلون مما باعوا من تراث المسلمين ،

---

(١) الممتحنة : ٩ .

(٢) الانفال : من الآية ١ .

(٣) اشارة الى حديث « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده . فان لم يستطع فبلسانه. فان لم يستطع فبقلبه. وذلك أضعف الايمان » رواه احمد ومسلم واصحاب السنن كلهم وهذا في وجوب تغيير المنكرات بفعلها المسلم فماذا يقال في مقاومة هدم الإسلام من أساسه (ر) .

وينامون مستريحين . مثل هؤلاء ليس لهم وجدان يعذبهم من الداخل ولا نجد من المسلمين من يجرؤ ان يعذبهم من الخارج [١] .

لم نكن لنطلق الكلام اطلاقاً على العالم الإسلامي في هذا الموضوع ، فإن الأمة الافغانية مثلاً لا يمكن أحداً ان يخطب فيهـا في حب الأجانب علناً ويبقى حياً ، والنجديون لا يوجد فيهم من يجرأ أن يمالىء الاجانب على قومه ، والمصريون قد ارتقت تربيتهم السياسية كثيراً عن ذي قبل فأصبحت مجاهرة أحدهم بالميل للأجنبي او تفضيل حكم الاجنبي خطراً عليه ، فأمـا في سائر بلاد الإسلام فمن شاء من المسلمين ان يخلع الرسن ويجاهر بالعصيان لعدو دينه وبلده فلا يخشى شراً ، ولا يحاذر قلقاً ولا أرقاً .

أفلمثل هؤلاء يقول الله تعـالى :

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنـاً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً [٢] .

حاشا لله تعـالى ان يكون عنى بهؤلاء « المسلمين » الذين يخونون ملتهم

---

(١) اما في فلسطين فقد تجـرأ المجاهدون اخيراً على تعذيب الخائنين ولقي كثير من هؤلاء جزاءهم الاوفى وجاء الوقت الذي عرف فيه خائن قومه انه (لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم) فعسى ان يكون في ذلك عظة وعبرة لسائر العالم الاسلامى (ش) .

(٢) النور : ٥٥ .

ويسعون بين يدي أعدائها ويناصبون إخوانهم العداوة ابتغاء مرضاة الأجانب والحصول على دنيا زائلة وحطام فان ، كيف وقد قرن الايمان بلازمة وهو عمل الصالحات ؟ بئسما شروا به أنفسهم . وكذلك لا يعني الله بهؤلاء المسلمين الذين إن لم يكونوا خامروا على قومهم ، وسعوا بين أيدي الاجانب في خراب أمتهم ، وأوطأوا مناكبهم لركوب الغريب الطامح ، فانهم اكتفوا من الاسلام بالركوع والسجود ، والاوراد والاذكار ، وإطالة السبحة والتلوم في السجدة ، وظنوا ان هذا هو الاسلام ، ولو كان هذا كافياً في إسلام المرء وفوزه في الدنيا والآخرة لما كان القرآن ملآن بالتحريض على الجهاد ، والإيثار على النفس ، والصدق والصبر ، ونجدة المؤمن لأخيه ، والعدل والاحسان ، وجميع مكارم الاخلاق . ولو كان هذا كافياً لأجل التحقق بالاسلام لما قال الله تعالى :

قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١) .

أفيقدر اخونا الشيخ بسيوني عمران او غيره ان يقول ان المسلمين اليوم

---

(١) راجع تفسير الآية – وهي في سورة التوبة ٢٤ – وما قبلها في ص ٢٢٤ : ٢٤٢ ج ١٠ من تفسير المنار (ر) .

ـ إلا النادر الاندر والكبريت الاحمر ـ يفضلون الله ورسوله على آبائهم واخوانهم وازواجهم وتجارتهم واموالهم ومساكنهم او يؤثرون حب الله ورسوله ـ وإنما حب الله ورسوله اقـامة الاسلام ـ على الجزء اليسير من أمـوال اقترفوها وتجارة يخشون كسادها ؟

لنعمل هذه التجربة ، فبضدها تتبين الاشياء .

الموازنة بين المسلمين والنصارى في البذل لنشر الدين :

لنفرض ان مسألة تنصير البربر دخلت في طور النجـاح ، وانتدب البابا الكاثوليكيين الذين في العالم لبذل الاموال اللازمة لهذا التحويل الذي تتوخاه فرنسة في البربر من دين الاسلام الى دين النصرانية ، فكم مليونـاً تظن من الجنيهات يدر على المبشرين والرهبـان والراهبات لبناء الكنائس والمدارس والملاجىء والمستشفيات ومراكز الاسقفيات وما اشبه ذلك لاتمام هذا العمل الذي تضم به الكثلكة ثمانية ملايين من البرابر الى الاربعماية مليون كاثوليكي الذين في العالم ؟

لا شك ان الجواب يكون : عدة ملايين تجمع في بضعة اشهر . فان قيل للبروتستانتيين تعالوا فقد أذنا لكم في تنصير البرابرة فابذلوا في هذه السبيل ما امكنكم ، فانها تدر حينئذ الملايين بقدر ضعفي ما يدر من الكاثوليكيين وفي مدة اقصر من المدة التي يجمع فيها المال الذي يجود به هؤلاء .

فلنقل للمسلمين : ان البرابرة صاروا على شفا الخروج من الاسلام ، وان الاس في هذا الصبوء عن دين الاسلام هو الجهل . فعلينا ان نرسل اليهم علماء ووعاظاً ليتفقهوا في الدين ، وأن نبني لهم المساجد والمدارس والكتاتيب والملاجىء الى غير ذلك من الوسائل التي تمسك بحجزاتهم عن مفارقة الاسلام والمسلمين .

فكم تظن المبلغ الذي يجود به المسلمون بعد اللتيا والتي لهذا العمل ؟ لا أظن أنهم يجودون بمـــا يتجاوز جزءاً من مائة ممـــا يبذله الكاثوليك او البروتستانت [1] .

فهذه هي حمية المسيحيين على دينهم ، وهذه هي حمية المسلمين .

ومن النـــاس من يسأل عن اسباب انحطاط المسلمين وقصورهم عن مباراة سواهم ، فلو تأمل في هذه الفروق في النهضة والحمية لوجد عندها الجواب الكافي .

ومن اغرب الامور ان نرى الاوروبيين ودعاتهم وتلاميذهم من الشرقيين بعد هـذا كله يتهمون المسلمين بالتعصب الديني وينبزونهم بلقبه ، وينتحلون لانفسهم التساهل في الدين ! ان هذا والله لعجب عجاب .

وها أنذا الآن في كتابتي هذه التي معناهـا الدفاع لا التجاوز ، والاستاذ الاكبر صاحب المنار ، وعبد الحميد بك سعيد رئيس جمعية الشبان المسلمين وغيرنا من المدافعين عن حق الاسلام والرجال الذين يبغون منع الاعتداء على الاسلام وينادون المسلمين لينتبهوا للخطر المحدق بهم — متهمون بالتعصب الديني ومنبوزون بهذه الكلمة ، لا بين غير المسلمين فقط ، بـل بين المسلمين

---

(١) شاع ان المنبوذين من الهنود يريدون فراق مذهب الهنادك وان منهم من شرح الله صدره للاسلام فأرسل الاستاذ الاكبر شيخ الازهر وفداً من علماء الشريعة الى الهند ليتحقق هل ثمة أمل في هداية المنبوذين هؤلاء ام ذاك نفخ في غير ضرم وعلم المسلمون في مشارق الارض ومغاربها خبر ارسال هذه البعثه الازهرية الى الهند ولم تتحرك همة واحـــد منهم الى تخصيص ما يوازي القطمير لأجل هداية هؤلاء المنبوذين الذين يزيد عددهم على ستين مليوناً . هذا بينما المبالغ التي يجمعها المسيحيون في كل عام لأجل تغذية التبشير المسيحي في آسيا وافريقية تقدر بعشرين الى ثلاثين مليون جنيه فهل تطمع هذه الأمة ان تجاري تلك الأمة ؟ وبينهما كل هذا الفرق (ش) .

الجغرافيين ايضاً – أعني الذين يتباهون بأن سياستهم « لا دينية » وطالما صرحوا بأنهم لا يقيمون للدين وزناً ، وطالما تزلفوا الى المسيحيين بكونهم هم لا يدافعون عن الدين الاسلامي كما يدافع زيد وعمرو... وهؤلاء فئة معروفة يعرفهم الناس وهم يعرفون انفسهم ولو فكر المسيحيون في شأنهم لعلموا انهم ليسوا على شيء وانهم لا يستحقون الاحترام منهم لان الذي يتزلف الى الناس بمثل هذه الطرق حري بأن لا يكون اهلاً للثقة ولا للكرامة ، وما يزين المرء شيء مثل الاستقامة واستواء الباطن والظاهر .

فالمسلم اذاً لا يخلص من لقب « متعصب » إلا اذا سمع ان الفرنسيس يحاولون تنصير البربر فمر بذلك كأن لم يسمع شيئـــاً ، وإلا اذا سمع ان الهولانديين نصروا مائة الف – وقد زعم أحد نواب البرلمان الهولاندي انهم فازوا بتنصير مليون مسلم من مسلمي الجاوى – وهز كتفه قائلاً: انا لا يهمني أكان الجاوي مسلماً ام مسيحياً ... – هنالك « المسلم » يصير « راقياً » ويعد « عصرياً » ويصير محبوباً ويقال فيه كل خير ؟!

وأما الاوروبي فله ان يبذل القناطير المقنطرة على بث الدعاية المسيحية بين المسلمين ، وله ان يحميها بالمدافع والطيارات والدبابات، وله ان يحول بين المسلمين ودينهم بالذات وبالواسطة ، وله ان يدس كل دسيسة ممكنة لهدم الاسلام في بلاد الاسلام ، وليس عليه حرج في ذلك ، ولا يسلبه هذا العمل صفة « راق » و « متمدن » و « عصري » وأغرب من هذا انه لا يسلبه نعت « مدني » و « لا ديني » و « متساهل » .

وهؤلاء « المسلمون الجغرافيون » برغم هذه الشواهد الباهرة للأعين ، وبرغم ما عملته جمهورية فرنسة « اللا دينية » في قضية البربر لمآرب دينية كاثوليكية ، وبرغم حماية هولاندة لمبشري الانجيل في الجاوى ، وبرغم قرار

الحكومة البلجيكية رسمياً إكمال تنصير اهل الكونغو [1] ، وبرغم منع الانكليز في الاوغاندا وفي دار السلام – وكذا السودان – من بث الدعاية الاسلامية بين الزنوج ، وبرغم امور كثيرة لا يسعنا الآن شرحها ، لا يزالون يخدعون المسلمين قائلين لهم: ان اوروبة قد رفست الدين برجلها وصارت على خطة لا دينية وبذلك قد اتسق لها الرقي ونجحت ونحن لن نفلح ما دمنا سائرين على خطة اسلامية [2] .

قد قام ببث هذه السفسطة أناس في تركيا ووجدوا ممن تلقاها بالقبول عدداً كبيراً . وترى أناساً في مصر والشام والعراق وفارس يقولون بها ويكابرون في المحسوس ولا يبالون ، لانهم يجدون على كل الاحوال من الاغرار من يصدقهم .

فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ [3] .

---

(١) أهل الكونغو ١٢ مليوناً من النفوس كانوا جميعهم فتيشيين فلما استولى البلجيكيون على الكونغو قرروا تنصيرهم ورأيت من عدة سنوات برنامج حكومة بلجيكا فاذا من جملة أركانه تنصير أهل الكونغو وبالفعل تنصر من زنوج الكونغو نحو من مليون ونصف الى الآن ولما كان المسلمون قد دخلوا الى الكونغو من مدة طويلة فأقبل الأهالي هناك على الاسلام حتى بلغ عدد المسلمين في الكونغو ١٥٠ الف نسمة خشيت بلجيكا انتشار الاسلام في تلك المستعمرة وصارت تعارض نموه فيها وتطرد المسلمين وتضيق عليهم ولم تبال بما في ذلك من الخلل بمبدأ الحرية الدينية ولا سمعت لومة لائم (ش) .

(٢) وقد صدقوا لكن بمعنى اننا ان نفلح ما دمنا على هذه الخطة التي نكذب بتسميتها اسلامية واننا انما نفلح اذا قمنا بحقوق اسلامنا كما يقومون بحقوق دينهم او أشد (ر) .

(٣) الحج : من الآية ٤٦ .

اهم اسباب تاخر المسلمين

من اعظم اسباب تأخر المسلمين الجهل ، الذي يجعل فيهم من لا يميز بين الخمر والخل ، فيتقبل السفسطة قضية مسلمة ولا يعرف ان يرد عليها .

ومن اعظم اسباب تأخر المسلمين العلم الناقص ، الذي هو اشد خطراً من الجهل البسيط ، لان الجاهل إذا قيض الله له مرشداً عالماً اطاعه ولم يتفلسف عليه ، فأما صاحب العلم الناقص فهو لا يدري ولا يقتنع بأنه لا يدري ، وكما قيل :

إبتلاؤكم بمجنون خير من ابتلائكم بنصف مجنون ، اقول :

إبتلاؤكم بجاهل ، خير من ابتلائكم بشبه عالم .

ومن أعظم أسباب تأخر المسلمين فساد الاخلاق ، بفقد الفضائل التي حث عليها القرآن ، والعزائم التي حمل عليها سلف هذه الأمة وبها ادركوا ما أدركوه من الفلاح ، والأخلاق في تكوين الأمم فوق المعارف ، ولله در شوقي إذ قال :

وَإِنَّمَا ٱلْأُمم ٱلْاخلاق مَا بَقِيَتْ

فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلاقُهُم ذَهَبُوا

ومن اكبر عوامل تقهقر المسلمين فساد أخلاق أمرائهم بنوع خاص، وظن هؤلاء — إلا من رحم ربك — ان الأمة خلقت لهم ان يفعلوا بها ما يشاؤون، وقد رسخ فيهم هذا الفكر حتى إذا حاول محاول ان يقيمهم على الجادّة بطشوا به عبرة لغيره .

وجاء العلماء المتزلفون لأولئك الامراء ، المتقلبون في نعمائهم ، الضاربون بالملاعق في حلوائهم ، وافتوا لهم بجواز قتل ذلك الناصح بحجة انه شق عصا الطاعة ، وخرج عن الجماعة .

ولقد عهد الاسلام الى العلماء بتقويم أود الامراء . وكان قديماً في الدول الاسلامية الفاضلة بمثابة المجالس النيابية في هذا العصر، يسيطرون على الأمة ، ويسددون خطوات الملك ، ويرفعون أصواتهم عند طغيان الدولة ، ويهيبون بالخليفة فمن بعده الى الصواب .

وهكذا كانت تستقيم الامور ، لان اكثر أولئك العلماء كانوا متحققين بالزهد ، متحلين بالورع متخلين عن حظوظ الدنيا ، لا يهمهم أغضب الملك الظالم الجبار أم رضي فكان الخلائف والملوك يرهبونهم ، ويخشون مخالفتهم ، لما يعلمون من انقياد العامة لهم ، واعتقاد الامة امامتهم، إلا انه بمرور الايام خلف من بعد هؤلاء خلف اتخذوا العلم مهنة للعيش ، وجعلوا الدين مصيدة للدنيا ، فسوغوا للفاسقين من الامراء اشنع موبقاتهم ، واباحوا لهم باسم الدين خرق حدود الدين ، هذا والعامة المساكين مخدوعون بعظمة عمائم هؤلاء العلماء ، وعلو مناصبهم ، يظنون فتياهم صحيحة وآراءهم موافقة للشريعة ، والفساد بذلك يعظم ، ومصالح الأمة تذهب ، والاسلام يتقهقر ، والعدو يعلو ويتنمر ، وكل هذا اثمه في رقاب هؤلاء العلماء [1] .

---

(١) وفينا هذه المسألة حقها في المنار وأفهه مقالة في المجلد التاسع (ص٣٥٧) عنوانها (حال المسلمين في العالمين . ودعوة العلماء الى نصيحة الملوك والامراء والسلاطين) اخبرنا فيها ـ باللائمة على علماء هذا العصر لتقصيرهم في نصيحة الملوك والامراء ، وبليها آثار عن السلف في ذلك نشرت في عدة اجزاء من هذا المجلد (ر) .

ومن اعظم عوامل تقهقر المسلمين الجبن والهلع ، بعد ان كانوا اشهر الأمم في الشجاعة واحتقار الموت ، يقوم واحدهم للعشرة وربما للمائة من غيرهم ، فالآن اصبحوا الا بعض قبائل منهم يهابون الموت الذي لا يجتمع خوفه مع الاسلام في قلب واحد . ومن الغريب ان الافرنج المعتدين لا يهابون الموت في اعتدائهم ، هيبة المسلمين اياه في دفاعهم ، وان المسلمين يرون الغايات البعيدة التي يبلغها الافرنج في استحقار الحياة والتهافت على الهلكة في سبيل قوميتهم ووطنهم ، ولا تأخذهم من ذلك الغيرة ولا يقولون نحن أولى من هؤلاء باستحقار الحياة ، وقد قال الله تعالى :

وَلَا تَهِنُوا فِي ٱبْتِغَاءِ ٱلْقَوْمِ انْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللهِ مَا لَا يَرْجُونَ (١) .

وقد انضم الى الجبن والهلع اللذين اصابا المسلمين اليأس والقنوط من رحمة الله ، فمنهم فئات قد وقر في انفسهم ان الافرنج هم الأعلون على كل حال (٢) وانه لا سبيل لمغالبتهم بوجه من الوجوه ، وان كل مقاومة عبث ، وان كل مناهضة خرق في الرأي ، ولم يزل هذا التهيب يزداد ويتضخم في صدور المسلمين أمام الأوروبيين الى ان صار هؤلاء ينصرون بالرعب ، وصار الأقل منهم يقومون للأكثر من المسلمين . وهذا بعكس ما كان في العصر الاول :

يَرَى ٱلْجُبَنَاءُ أَنَّ ٱلْجُبْنَ حَزْم
وَتِلْكَ خَدِيعَةُ ٱلطَّبْعِ ٱللَّئِيمِ

---

(١) النساء : من الآية ١٠٤ .

(٢) والله يقول : (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون وان كنتم مؤمنين) .

نسي المسلمون الأيام السالفة التي كان فيها العشرون مسلماً لا غير يأتون من (برشلونة) الى (فراكسية) من سواحل فرنسة ويستولون على جبل هناك ويبنون به حصناً ويتزايد عددهم حتى يصيروا مئة رجل فيؤسسون هناك امارة تعصف ريحها بجنوبي فرنسة وشمالي ايطالية ، وتهادنها ملوك تلك النواحي وتخطب ولاءها ، وتستولي على رؤوس جبال الألب ، وعلى المعابر التي عليها الطرق الشهيرة بين فرنسة وايطالية ، لا سيما معبر سان برنار الشهير ، وتضطر جميع قوافل الافرنج ان تؤدي للعرب المكوس لاجل المرور ، تتقدم هذه الدولة العربية الصغيرة في بلاد (البياءون) مسافات بعيدة الى ان تبلغ سويسرة وبحيرة (كونستانزه) في قلب أوروبة وتضم القسم العالي من سويسرة الى املاكها وتبقى خمساً وتسعين سنة مستولية على هذه الديار الى أن تتألب الامم الافرنجية عليها ، ولا تزال تناجزها الى ان استأصلتها ، وكانت تلك العصابة العربية يوم انقرضت لا تزيد على الف وخمسمائة رجل[1] (وقد نشرنا تفصيل خبرها في المجلد ٢٤ من المنار) .

شبهات الجهلاء الجبناء وردها :

من السخفاء من يقول نعم قد كان ذلك ، لكن قبل أن يخترع الافرنج آلات القتال الحديثة ، وقبل المدافع والدبابات والطيارات ، وقبل ان يصير الافرنج الى ما صاروا اليه من القوة المبنية على العلم . وهذا القول هو منتهى السخف والسفه والحماقة ، فان لكل عصر علماً وصناعة ومدنية تشاكله ، وقد كانت في القرون الوسطى علوم تشاكلها كما هي العلوم والصناعات والمدنية الحاضرة في هذا العصر . وامور الخلق كلها نسبية ، ولقد كانت في العصر الذي نتكلم عنه آلات قتال ومنجنيقات ودبابات ونيران

---

(١) يجد القارىء تفاصيل هذه الغزوات في كتابنا « غزوات العرب في سويسرة وجنوبي فرنسة وشمالي ايطالية وجزائر البحر المتوسط » المطبوع من خمس سنوات .

مركبة تركيباً مجهولاً اليوم، وكانت في ذلك الوقت كما هي المدافع والرشاشات وقنابر الديناميت وما أشبه ذلك في هذه الايام .

على انه ليست الدبابات والطيارات والرشاشات هي التي تبعث العزائم ، وتوقد نيران الحمية في صفوف البشر ، بل الحمية والعزيمة والنجدة هي التي تأتي بالطيارات والدبابات والقنابر . وما هذه إلا مواد صماء لا فرق بينها وبين أي حجر ، فالمادة لا تقدر ان تعمل شيئاً من نفسها ، وإنما الذي يعمل هو الروح ، فاذا هبت أرواح البشر وتحركت عزائمهم فعند ذلك نجد الدبابات والطيارات والرشاشات والغواصات وكل اداة قتال ونزال على طرف التمام .

يقولون : الا ان هذا ينبغي له العلم الحديث ، وهذا العلم مفقود عند المسلمين ، فلذلك أمكن الافرنج ما لم يمكنهم .

(والجواب) ان العلم الحديث ايضاً يتوقف على الفكرة والعزيمة ، ومتى وجدت هاتان وجد العلم الحديث ووجدت الصناعة الحديثة . أفلا ترى ان اليابان الى حد سنة ١٨٦٨ كانوا أمة كسائر الأمم الشرقية الباقية على حالتها القديمة ، فلما أرادوا اللحاق بالامم العزيزة تعلموا علوم الاوروبيين ، وصنعوا صناعاتهم ، واتسق لهم ذلك في خمسين سنة وكل أمة من أمم الاسلام تريد ان تنهض وتلحق بالامم العزيزة يمكنها ذلك وتبقى مسلمة ومتمسكة بدينها ، كما ان اليابانيين تعلموا علوم الاوروبيين كلها وضارعوهم ولم يقصروا في شيء عنهم ولبثوا يابانيين ولبثوا متمسكين بدينهم واوضاعهم . وايضاً فمتى ارادت أمة مسلمة أدوات أو أسلحة حديثة ولم تجدها ؟ ان ملاك الامر هو الارادة فمتى وجدت الارادة وجد الشيء المراد .

فلو ان أمة من أمم الاسلام أرادت أن تتسلح لوجدت السلاح الحديث اللازم بأنواعه وأشكاله من ثاني يوم . ولكن اقتناء السلاح ينبغي له سخاء

بالاموال ، وهم لا يريدون ان يبذلوا ، ولا ان يقتدوا بالافرنج واليابان في البذل ، بل يريدون النصرة بدون سلاح وعتاد ، أو السلاح والعتاد بدون بذل أموال ، وإذا تغلب العدو عليهم من بعد ذلك صاحوا قائلين : أين المواعيد التي وعدنا اياها القرآن في قوله :

وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١) .

كأن القرآن ضمن للمؤمنين النصر بدون عمل وبلا كسب ولا جهاد بالاموال والانفس ، بل بمجرد قولنا اننا مسلمون،او بمجرد الدعاء والتسبيح؟ وأغرب من ذلك بمجرد الاستغاثة بالاولياء ، فأصبح الكثير من المسلمين وهم عزل من السلاح الحديث وهم غير مجهزين بالعلم اللازم لاستعماله لا يقومون للقليل من الافرنج المسلحين المجهزين ، وصاروا إذا التقى الجمعان تدور الدائرة في اغلب الاحيان على المسلمين . فتوالى هذا الأمر عليهم مدة طويلة الى ان فقدوا كل ثقة بنفوسهم، واستولى عليهم القنوط ، ودب فيهم الرعب ، وألقوا بأنفسهم الى العدو وبعد ان كانوا مسلمين ، صاروا مستسلمين ، وقد ذهلوا عن قوله تعالى :

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ (٢) .

---

(١) الروم : ٤٧ .

(٢) آل عمران : ١٣٩ ومن الآية ١٤٠ .

ونسوا أنه لا يجوز ان يتطرق اليأس الى قلب احد لا عقلاً ولا شرعاً ، ولا سيما المسلم الذي يخبره دينه بأن اليـأس هو الكفر بعينه . وغفلوا عن قوله تعالى في سلفهم :

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ * فَٱنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ ٱللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ . الآيات[1]

فتجدهم إذا استنهضتهم لمعـاونة قوم منهم يقاتلون دولة اجنبية تريد لتمحوهم كان اول جواب لهم : أية فـائدة من بذل أموالنـا في هذا السبيل وتلك الدولة غالبة لا محالة ؟ ولو تأملوا لوجدوا ان الاستسلام لا يزيدهم إلا ويلاً ، ولا يزيـد العدو إلا استبداداً وجبروتاً : سنة الله في خلقه . ولو فكروا قليلاً لرأوا ان هذا الشح بالمال على اخوانهم الذين في مواطن الجهاد لم يكن توفيراً وإنما كان هو الفقر بعينه ، لان الأمة المستضعفة لا تعود حرة في تجارتها واقتصادياتها ، بل يمتص العدو الغالب عليها كل مـا فيه علالة رطوبة في ارضهـا ، ولا يترك للأمة المستضعفة إلا عظاماً يتمششونها ، من قبيل « قوت لا يموت » وكثيراً ما تحصل مساغب ويموتون جوعاً كما يقع كثيراً في جزائر الغرب والهند وغيرهمـا ، ترى المجاعات واقمة في الهند ولا يموت منها ولا انكليزي وتراها تشتد في الجزائر ولا يموت بها إلا المسلم[2] . وما

---

(١) الآيتان : ١٧٣ و ١٧٤ من آل عمران .

(٢) ضن المسلمين بالأموال على القضايا العامة هو الذي شل حركتهم السياسية وقت في عضد قوميتهم الى ان صارت الامم الغالبة على أمرهم لا تحسب لهم أدنى حساب ولو كانت تحسب لهم حساباً ما كان الفرنسيس انتزعوا منهم أملاكهم في الجزائر حتى صاره ٧ في المائة منها ملكاً=

السبب في ذلك إلا أن الاجانب قد استأثروا بخيرات البـــلاد ولم يتركوا للمسلمين الا الفقر . فقـام المسلمون اليوم يعتذرون عن عـدم بذل الاموال لمساعدة اخوانهم بعدم وجودها ، وهذا صحيح الى حد محدود ، وذلك انهم بخلوا بهـا في الاول فجنوا من بخلهم على الجهـاد الذل والخنوع اولاً ، والفقر

= للفرنسيس وصار ثلث اراضي تونس ملكاً لخمسين الف افرنسي مع ان الاهالي هم مليونان ونصف مليون مسلم يملكون الثلثين لا اكثر ، وايضاً لما كانت فرنسا ابتزت اهالي المغرب الاقصى ثمانمائة الف هكتار وسلمتها للمستعمرين الافرنسيين ، ولما كانت فرنسا تنفق ثلاثة أرباع ميزانية المغرب المالية على ١٩٠ الف افرنسي وتنفق الربع الباقي على مسلمي المغرب مع انهم سبعة ملايين نسمة ومع ان ٨٠ في المائة من ميزانية المغرب هي من اموال المسلمين كما اثبتنا ذلك بالارقام نقلاً عن جريدة الحماية الرسمية التي لا يقدر الفرنسيس ان يكابروا فيها وهي ميزانية عدة سنين لا سنة واحدة وقد نقلنا تلك الميزانيات كلها عن جريدة الحماية الرسمية المطبوعة في الرباط الى مجلتنا « لاناسيون آراب » ودعونا الناس الى تأمل هذا الحيف الفظيع الواقع على المسلمين الذين يتمتع الافرنسي الواحد من ميزانيتهم اكثر مما يتمتع به ستون مسلماً .

وأغرب من ذلك ان الواحد من يهود المغرب فضلاً عن الفرنسيس يستفيد من الميزانية المغربية اكثر من اربعين مسلماً واغرب منه انه من هذه الميزانية التي اربعة اخماسها من جيوب المسلمين يأخذ المبشرون والقسوس دعاة النصرانية مئات الوف من الفرنكات لاجل بث المسيحية بين البربر المسلمين وهذا على نسق اعطاء مبشري النصرانية في السودان المصري إعانات من اموال المسلمين، فلولا هوان المسلمين على دول الاستعمار وكون هذه لا تقيم وزناً ما كانوا يستخفون بهم الى هذا الحد الأقصى ولا كان عند الفرنسيس الاربعون مسلماً بيهودي واحد ولا الستون مسلماً بافرنسي واحد ، ولقد تحدينا هم موارأ ان يجيبونا عن هـذا الظلم الفاحش فما اجابونا بغير الطعن والقذف والتهمة لنا بعداوة فرنسا كأن الانسان لا يمكن ان يكون صديقاً لفرنسا الا اذا أهدر في سبيلها جميع حقوق قومه وهذا من اغرب الغرائب .

ولو تأملوا قليلا لعلموا ان نصحنا لهم بانصاف المسلمين هو نصح عائد الى مصلحتهم وان العدو لا يشير عليهم باستجلاب قلوب المسلمين ابداً وإنما يريدها حامية بين الفريقين الى ما شاء الله (ش) .

والجوع ثانياً . فان من سنن الله في أرضه ان الذل يردفه الفقر ، وان العز يردفه الثراء ، والمثل العربي يقول : من عز بز ، والشاعر العربي الايادي يقول :

لَا تَذْخِرُوا المَالَ لِلْأَعْدَاءِ إِنَّهُمُ
إِنْ يَظْهَرُوا يَأْخُذُوكُم وَٱلْتِلَادَ مَعاً
هَيْهَاتَ لَا خَيْرَ فِي مَالٍ وَفِي نِعَمْ
قَد ٱحْتَفَظْتُمْ بِهَا إِنْ أَنْفُكُمْ جدعا

والمتنبي يقول :

فَلَا مَجْدَ فِي ٱلدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ
وَلَا مَالَ فِي ٱلدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ

فالمسلمون عز عليهم المال ففقدوه ، وعزت عليهم الحياة ففقدوها ، وأبى الله إلا تصديق كلام النبي الموحى اليه حيث يقول : « يوشك ان تداعى عليكم الأمم كما تَداعى الأكلةُ على القصاع » قالوا أوَ من قلة فينا يومئذ يا رسول الله ؟ قال : « لا ولكنكم غُثاء كغُثاء السيل ينجعلُ الوهنُ في قلوبكم وينزع من قلوب أعدائكم ، من حبكم الدنيا وكراهيتكم الموت ».

هذا الحديث رواه لي الشيخ محمد بن جعفر الكتاني الفاسي رحمه الله يوم لقيته في المدينة المنورة منذ خمس وعشرين سنة ، ثم قرأته في الكتب واستشهدت به في مقدمة حاضر العالم الاسلامي ، وألفاظه تختلف في رواية

عن رواية . فالاستاذ صاحب المنار امتع الله بطول حياته هو الأدرى بأصح رواياته [1] ومعناه ظاهر وهو : أن المسلمين يأتي عليهم يوم يصيرون فيه

---

(١) الحديث رواه ابو داود في سننه والبيهقي في دلائل النبوة عن ثوبان مرفوعاً بلفظ « يوشك ان تداعى عليكم الامم كما تداعى الأكلة الى قصعتها » فقال قائل ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال (ص) « بل انتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، وسينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم . وليقذفن في قلوبكم الوهن » — قال قائل : يا رسول الله وما الوهن قال « حب الدنيا وكراهية الموت » .

قوله (ص) « تداعى » اصله تتداعى أي تجتمع ويدعو بعضها بعضاً لسلب ملكم كما تتداعى الاكلة وهي جمع آكل — كالفعلة جمع فاعل — الى قصعة الطعام والغثاء بالضم ما يحمله السيل ويلقيه من الزبد والعيدان ونحوها ويضرب مثلاً لما لا قيمة له ولا فائدة ، والوهن بالنون الضعف ، وإنما سأله السائل عن سببه فأجابه (ص) بأن سببه حب الحياة الدنيا ولذاتها الخسيسة وإيثارها على الجهاد في الدفاع عن الحقية وإعلاء كلمة الله ، وكراهية الموت ولو في سبيل الحق حرصاً على هذه الحياة الخسيسة .

وقد اوردت هذا الحديث في تفسير قوله تعالى : (الانعام : آية ٦٥) .

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ .

وأوردت قبله حديث ثوبان الآخر الذي رواه مسلم في صحيحه قال رسول الله (ص) « ان الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وان امتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها ، واعطيت الكنزين الأحمر والأبيض ، واني سألت ربي لأمتي ان لا يهلكها بسنة عامة ، وان لا يسلط عليها عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم (أي ملكهم وسلطانهم ومقر قوتهم) وان ربي قال لي : يا محمد اذا قضيت قضاء فانه لا يرد ، واني اعطيتك لأمتك ان لا اهلكهم بسنة عامة (أي قحط) وأن لا اسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها — أو قال من بين اقطارها — حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي =

مأكلة وتمتد اليهم الايدي من كل جهة ، فهذا العصر الذي نحن فيه هو ذلك اليوم ، وان المسلمين لا يكون عيبهم يومئذ قلة الكثرة بنفسها لا تفيد ان تقترن بجودة النوع والكمية التي لا تغني عن الكيفية [1] ، وعلة العلل في ضعف المسلمين ذلك اليوم هو الجبن والبخل ، صريح ذلك في قوله ﷺ « من حبكم الدنيا وكراهيتكم الموت » [2] .

= بعضهم بعضاً » ورواه احمد واصحاب السنن الا النسائي بزيادة على رواية مسلم هذه ، وكلا الحديثين من اعلام النبوة التي ظهر بها صدقه (ص) بعد قرون من وفاته ورفع روحه الى الرفيق الاعلى، فما ذهب شيء من ملك المسلمين الى أيدي الاجانب الا بخذلان بعضهم لبعض ومساعدتهم للأجانب على انفسهم ، وفي هذه الرسالة للأمير شكيب بعض الشواهد من مسلمي هذا العصر على ذلك . وراجع الموضوع بتفصيله في تفسير الآية المشار اليها من ص ٤٩٠ – ٥٠١ ج ٧ تفسير (ر) .

(١) عدد المسلمين اليوم ما ينيف عن ستماية مليون فيا لها من قوة لو كان جميعهم رجالاً كالرجال المتغلبين عليهم (ش) .

(٢) نعم يخشى المسلمون دول الاستعمار فيطيعونها حتى على آبائهم وابنائهم وأعز الناس لديهم وأغلى الأمور عليهم وعلى دينهم ووطنهم وقوميتهم وثقافتهم وان سألتهم عن اسباب هذه الطاعة العمياء قالوا لك اننا ان لم نطعهم أهلكونا ونحن لا قبل لنا بمقاومتهم ونسوا انهم عندما تقذف بهم دول الاستعمار في حروبها يلاقون فيها الموت الذي لم يكونوا ليلاقوا اعظم منه لو كانوا عصوها .

قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ .

ولعمري ان تعليل هذه الحالة الروحية التي نجدها عند المسلمين الخاضعين لدول أوروبة المستعمرة ليتعذر على نطس اطباء الاجتماع جميعاً اذ لا يمكن ان يعقل صنفان من الموت أحدهما مر المذاق لا تقوى على مواجهته النفس وهو الموت في مقاومة الاجنبي المتغلب والثاني مقبول الطعم سهل الاقتحام وهو الموت في مقاتلة عدو ذلك المتغلب . لا جرم ان هذه حالة روحية شاذة لا تفسر ولا تعلل إلا بالمرض وعدم اعتدال المزاج وكون الرعب المستمر الذي اوقعه =

ومن المعلوم ان الافراط في حب الدنيا يحرم الانسان التمتع بها وان الغلو في

= في قلوبهم الاجنبي المتغلب انتهى بأن أوجد في نفوسهم هذه الحالة الغريبة التي لم أجد لها شبيهاً في التاريخ الا ما كان منهم يوم زحف التتار المغوليين الى بلاد الاسلام ونسفوا تلك الحضارات الزاهرة التي كانت في تركستان وإيران والعراق وذبحوا الملايين من اهلها ذبح الشياه ودمروا بغداد دار الخلافة وأهلكوا الخليفة المستعصم العباسي تحت أرجل الفيلة وجعلوا من جماجم القتلة آكاماً عالية فوصل الرعب بقلوب المسلمين الى ان صار المغولي الواحد يدخل على المائة منهم فيقتلهم جميعاً وأسلحتهم في أيديهم ولا تحدثهم نفوسهم بأدنى مقاومة ولا يقال لمثل هذا انه مجرد انكسار قوى معنوية بل هو ابعد مدى من هذا بكثير فان انكسار القوى المعنوية لا يسلب المغلوب كل آثار النشاط للمقاومة وإنما كان ذاك مرضاً زاغت به الطبائع البشرية عن مركزها وعتمها استولى على العقول وجردها من خواص الادراك . وقد حدث أحد المؤرخين برواية غريبة عن رجل شهد تلك الوقائع بعينه فقال ما معناه : فررت من التتار فساقني القدر الى بيت وجدت فيه ثمانية عشر رجلا كلهم تخبأوا فيه لعلهم ينجون من الموت فبينما نحن جالسون إذ دخل علينا احد التتار فرآنا جميعاً وعلى وجوهنا غبرة الموت ولم يكن معه سلاح يقتلنا به فقال لنا : ابقوا هنا حتى آتي بسكين وأذبحكم ومضى ليأتي بالسكين . فلما ذهب قلت للجماعة : ماذا تنتظرون ؟ قالوا : لا ننتظر شيئاً سوى الموت . فقلت لهم : كيف ننتظر الموت من يد رجل واحد ونحن عصبة ١٩ رجلا ؟ قالوا : ماذا تريد أن نصنع ؟ قلت : نقتله . قالوا : لا تمتد ايدينا اليه لأننا نخاف . قلت : مم تخافون ؟ ان كان خوفكم من الموت فهو قاتلكم على كل حال . قال : وما زلت أشجعهم الى ان اقتنع بكلامي اثنان منهم لا غير . فلما رجع المغولي وبيده السكين الذي يريد ان يقتلنا به هجمنا عليه نحن الثلاثة ونزعنا السكين من يده وقتلناه به وخرجنا ونجونا . هذا وبقي المسلمون في رعب من التتار غير ممكن التعليل الى ان خرجت اليهم العساكر المصرية في زمن الملك قطز ، فتلاقى الجمعان في عين جالوت من فلسطين وانهزم التتار هزيمة شنعاء ثابت بعدها عزائم المسلمين اليهم واخذوا يفتكون بالتتار وصار هؤلاء عندهم كسائر الناس ولو لم يدخل التتار في الاسلام لكان المسلمون أبادوهم .

وخلاصة القول ان المسلمين كلما آثروا السلامة ازدادوا موتاً وكلما احتقروا الحياة ازدادوا حياة والى هذا أشار الله تعالى في كتابه الكريم حين يقول :

يأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي =

المحافظة على الحياة تكون عاقبته زيادة التعرض للهلاك [1] هذه هي من سنن الله في خلقه او من النواميس الطبيعية كما يقال في هذا العصر فالقرآن يأمر المسلم بأن يحتقر الحياة والمال وكل عزيز في سبيل الله، ويأمر المسلم ان يثبت ولا ييأس ، وان يصبر ولا يتزلزل مهما أصيب وتراه يقول :

وَكَأَيِّن مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا ٱسْتَكَانُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّابِرِينَ [2] .

هكذا يريد الله ليكون المسلمون ، فان لم يكونوا هكذا بصريح نص القرآن ، فكيف يستنجزون الله عداته بالنصر والتمكين والسعادة والتأمين ؟

= سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ . الاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوه شَيْئاً وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (ش) .

(١) ان الله تعالى يقول :

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ .

أي ان عدم اتفاقكم في سبيل الله هو التهلكة بعينها . وقد اصابت المسلمين تهلكة عدم الانفاق وصدق فيهم ما حذرهم الله منه (ش) .

(٢) آل عمران : ١٤٦ .

ضياع الاسلام بين الجامدين والجاحدين :

ومن اكبر عوامل انحطاط المسلمين الجمود على القديم، فكما ان آفة الاسلام هي الفئة التي تريد ان تلغي كل شيء قديم ، بدون نظر فيما هو ضار منه او نافع ، كذلك آفة الاسلام هي الفئة الجامدة التي لا تريد ان تغير شيئاً ، ولا ترضى بادخال اقل تعديل على اصول التعليم الاسلامي ظناً منهم بان الاقتداء بالكفار كفر ، وان نظام التعليم الحديث من وضع الكفار .

فقد اضاع الاسلام جاحد وجامد .

أما الجاحد فهو الذي يأبى إلا أن يفرنج المسلمين وسائر الشرقيين ويخرجهم عن جميع مقوماتهم ومشخصاتهم ، ويحملهم على إنكار ماضيهم ، ويجعلهم اشبه بالجزء الكيماوي الذي يدخل في تركيب جسم آخر كان بعيداً فيذوب فيه ويفقد هويته . وهذا الميل في النفس الى انكار الانسان لماضيه واعترافه بأن آباءه كانوا سافلين ، وانه هو يريد ان يبرأ منهم لا يصدر إلا عن النفس الخسيس ، الوضيع النفس ، أو عن الذي يشعر أنه في وسط قومه دنيء الأصل ، فيسعى هو في انكار اصل أمته بأسرها لأنه يعلم نفسه منها بمكان خسيس ليس له نصيب من تلك الأصالة ، وهو مخالف لسنن الكون الطبيعية التي جعلت في كل أمة ميلاً طبيعياً للاحتفاظ بمقوماتها ومشخصاتها من لغة وعقيدة وعادة وطعام وشراب وسكنى وغير ذلك إلا ما ثبت ضرره [1] .

محافظة الشعوب الافرنجية على قوميتها :

فلننظر الى اوروبة – لأنها هي اليوم المثل الأعلى في ذلك – فنجد كل

---

(١) قال المستر شمبرلين ناظر خارجية انكلترا سابقاً: نحن الانكليز أمة تقليدية محافظة على القديم لا نرضى بتبديل شيء من اوضاعنا الا اذا ثبت ضرره ولم يبق مناص من تغييره (ش) .

أمة فيها تأبى ان تندمج في أمة أخرى. فالانكليز يريدون ان يبقوا انكليزاً، والافرنسيس يريدون ان يبقوا افرنسيساً ، والالمان لا يريدون ان يكونوا إلا المانا ، والطليان لا يرضون أن يكونوا إلا طلياناً، والروس قصارى همهم أن يكونوا روساً ، وهلم جراً .

ومما يزيد هذا المثال تأثيراً في النفس ان الايرلنديين مثلاً أمة صغيرة مجاورة للانكليز وقد بذل هؤلاء جميع ما يتصوره العقل من الجهود ليدمجوهم في سوادهم مدة تزيد عن سبعمائة سنة ، فأبوا أن يصيروا انكليزاً ولبثوا ايرلنديين بلسانهم وعقيدتهم واذواقهم وعاداتهم .

وفي فرنسة نفسها تأبى أمة « البريتون » إلا أن تحافظ على أصلها . وفي جنوبي فرنسة جيل يقال لهم « الباشكنس » احتفظوا بقوميتهم تجاه القوط ، ثم تجاه العرب ، ثم تجاه الاسبان ، ثم تجاه الفرنسيس ، وجميعهم مليون نسمة . وهم لا يزالون على لغتهم وزيهم وعاداتهم وجميع اوضاعهم .

والفلمنك يأبون أن يجعلوا اللغة الافرنسية لغتهم والثقافة الافرنسية ثقافتهم ، ولم يزالوا يصيحون في بلجيكا حتى اضطرت دولة بلجيكا الى الاعتراف بلغتهم لغة رسمية .

وفي سويسرة ثلاثة أقسام : القسم الالماني وهو مليونان وثمانمائة الف والقسم المتكلم بالطليانية وهو اكثر قليلاً من مائتي الف ، والقسم المتكلم باللغة الفرنسية وكل قسم منهما محافظ على لغته وقوانينه ومنازعه مع انهم كلهم متحدون في مصالحهم السياسية وهم يعيشون في مملكة واحدة .

وان الدانمرك وبلاد الاسكنديناف وهولاندة فروع من الشجرة الالمانية لا مراء في ذلك ، لكنهم لا يريدون الاندماج في الالمان ولا العدول عن قوميتهم . وبقي « التشيك » مئتين من السنين تحت حكم الالمان يقاومون

تشيكاً ، واستأنفوا بعد الحرب العامة استقلالهم السياسي ، بعد ان حفظوا لسانهم واستقلالهم الجنسي مدة خمسة قرون .

وقد هذب الألمـــان أمسة المجر وعلموهم ورقوهم ولكنهم لم يتمكنوا من ادماجهم في الألمانية ، فتجدهم أحرص الأمم على لغتهم المغولية الاصلية وعلى قوميتهم المجرية .

ولبثت الروسية العظيمة من مائتين الى ثلاثمائة سنة تحاول ادخال بولونية في الجنس الروسي وحمل البولونيين على نسيان قوميتهم الخاصة بحجة ان العرق السلافي يجمع بين البولونيين والروس ، ففشلت جميع مساعيها في ادمـــاج البولونيين فيها وعاد هؤلاء بعد الحرب العامة أمة مستقلة في كل شيء . وذلك لأنهم لم يتخلوا طرفة عين عن قوميتهم .

وليس من العجيب ان لا يريد أمة عديدها ٣٠ مليوناً الاندماج في غيرها . ولكن الاستوانيين وهم مليونان فقط انفصلوا عن الروسية ولم يقبلوا الاندماج فيها وأحيوا استقلالهم ولسانهم المغولي الأصل وجعلوا له حروفاً هجائية . ومثلهم أهالي فنلاندة المنفصلون عن الروسية أيضاً .

وقد خابت مساعي الروس في إدماج الليتوانيين من هذه الأمم البلطيكية في الجنس الروسي ، وانتفضوا بعد الحرب العامة أمة مستقلة كما كانوا مستقلين قومياً ، وجميعهم أربعة ملايين . وأقل منهم جيرانهم الليتونيون [1] الذين هم مليونان لا غير ، ومع هـذا قد انفصلوا بعد الحرب وأسسوا جمهورية كسائر الجمهوريات البلطيكية لأنهم من الأصل لبثوا محافظين على لغتهم وجنسهم .

---

(١) ليتونيا هي غير ليتوانيا وكلتاهما من الأمم التي انفصلت عن الروسية بعد الحرب العامة لاختلاف جنسها عن جنس الروس (ش) .

وقد عجز الروس من جهة كما عجز الالمان من جهة اخرى عن ادخال هذه الأقوام في تراكيبهم القوميـة العظيمة لان كل شعب مهما كان صغيراً لا يرضى بانكار أصله ولا بالنزول عن استقلاله الجنسي .

وقد حفظ الكرواتيون استقلالهم الجنسي مع إحاطة أمتين كبيرتين بهم هم اللاتين والجرمان .

وحفظ الصربيون استقلالهم الجنسي مع سيادة الترك عليهم منذ قرون .

ولم يزل الأرناؤوط أرناؤوطاً منذ عهد لا يعرف بـــدؤه وهم بين أمتين كبيرتين اليونان والصقالبة أي السلاف !

وكذلك البلغار أبوا إلا أن يبقوا بلغاراً فيما بين الروم والسلاف واللاتين. ثم جاءهم الترك فتعلموا التركية لكنهم بقوا بلغاراً .

ولا أريـــد ان اخرج في الاستشهاد عن اوروبة لأني ان خرجت عن اوروبة قالت تلك الفئـــة الجاحدة : نحن لا نريد ان نجعل قدوة لنا أمماً متأخرة مثلنا .

فالأمم التي استشهدنا الآن بها كلها اوروبية ، وكلها متعلمة راقية ، وكلها ذوات بلدان ممدنة منظمة ؛ وكلهـا عندها الجامعات والأكاديميات والجمعيات العلمية والجيوش والأساطيل الخ ..

العبرة للعرب وسائر المسلمين برقي اليابانيين :

ولكني اخرج من اوروبة الى اليابان فقط لأن رقي اليـابان يضارع الرقي الاوروبي وقد تم لليـابان كما تم رقي اوروبة للاوروبيين أي في ضمن دائرة قوميتهم ولسانهم وآدابهم وحريتهم ودينهم وشعائرهم ومشاعرهم وكل شيء لهم .

فأنقل الى القراء العرب فقرة من رسالة طويلة جاءت من مراسل اوروبي سائح في اليابان وظهرت في جريدة « جرنال دوجنيف » بتاريخ ٢٠ اكتوبر (١٩٣١) فانه يقول :

« ان الياباني يحب الفن قبل كل شيء ، وإن رأيته ساعياً في كسب المال فلأجل ان يلذذ بالمال اهواءه المنصرفة الى الحسن والجمال . وقد انتقش في صفحة نفسه الشعور القومي الشديد عدا الميل الى الجمال ، لأنه يفتخر بكون اليابان في مدة ستين سنة فقط صارت من طور أمة في القرون الوسطى اقطاعية الحكم الى أمة عظيمة من أعظم الأمم ، ومما لا ريب فيه ان الديانة اليابانية هي ذات دور عظيم في سياسة اليابان (ليتأمل القارىء) وهي في الحقيقة فلسفة مبنية على الاعتراف بكل ما تركه القدماء لسلائلهم . فاليابانى العصري قد ائتلف مع جميع احتياجات الحياة العصرية ، لكن مع حفظ الميل الدائم الى الرجوع الى ماضيه ومع التمسك الشديد بقوميته ، غير مجيب نداء التفرنج (وفي الأصل التغرب Occidentalisme) الذي لا يريد الياباني ان يأخذ منه إلا ما هو ضروري له لأجل مصارعة سائر الامم بنجاح ، ولا شك ان هذا مثال فريد في تاريخ أمم الشرق الاقصى » .

ثم يقول :

« كان اليابانيون يكرهون الاسفار الى البلدان البعيدة ، ويحظرون دخول الاجانب الى بلادهم ، ولكن هذا المنع قد ارتفع بعد النهضة العصرية ، وتلافت اليابان ما فات بشكل مدهش . والنتائج هي أمامنا إلا أن الماضي لا يزال عند اليابانيين مقدساً معظماً في جميع طبقاتهم لانه في هذا الماضي المقدس يجد اليابانيون جميع شعورهم بقيمتهم الحاضرة ، فتراهم يكافحون بوسائل المدنية الحديثة التامة التي لا سبيل الى الحياة بدونها في أيامنا هذه ، لكن ينبذون كل « تغرب » بمجرد ما يجدون أنفسهم في غنى عنه ، ويعودون مع اللذة الى شعورهم القومي الخالص الذي به يعتقدون انهم الأعلون .

« وهناك هياكل « شنتو » ومعابد « زن » والهياكل البوذية وهي مكرمة معظمة مخدومة بأشد ما يمكن من الحماسة الدينية والايمان الثابت كما كانت منذ قرون . والحق ان هذا الاحترام الشديد الذي يشعر به اليابانيون لقديمهم ولمعبوداتهم هو الذي قام عندهم حصناً منيعاً دون المبادىء الشعوبية ، والافكار الشيوعية المضرة » .

ومنذ بضع سنوات ظهر في فرنسة تأليف جديد عن اليابان للمركيز (لا مازلبير La Mazelière) قد اطنبت الجرائد في وصفه ونشرت عنه جريدة (الديبا) مقالاً رناناً ، فنحن نوصي القراء الذين يهمهم ان يعرفوا كيفية ارتقاء اليابان — وهو موضوع في غاية الجلالة لما فيه من الاستنتاج لسائر بلاد الشرق — بمطالعة هذا الكتاب الذي لا يمكن ان ينسب الى مؤلفه التعصب لليابان ، على انني رأيته في الجملة مطابقاً لتواريخ ألفها علماء يابانيون متخصصون في التاريخ . وهذه التواريخ مترجمة من اليابانية الى الافرنسية . ولا بد لي في هذه العجالة من نقل بعض فقر من تاريخ لامازلبير المذكور . قال في اثناء الكلام على تمدن اليابان العصري وخروج هذه الامة من عزلتها القديمة ما يلي :

« فبدأت اليابان تستعير من اوروبة وامريكا قسماً من مدنيتها المادية ، ومن نظامها العسكري ، ومن مباحث تعليمها العام ، ومن سياستها المالية ، فكان المجددون يجتهدون في ان يقتبسوا من كل شعب ما يرونه الاحسن عنده ، فكان ذلك مشروع تجديد وهدم واعادة بناء ، وظهرت آثار ذلك في جميع مناحي الحياة اليابانية » .

ثم تكلم على الحرب اليابانية الصينية ، وانتهى الى قوله الذي نترجمه ترجمة حرفية :

« ان ظفر اليابان بالصين لم يثبت علو الافكار والمباديء العلمية التي

اخذتها اليابان عن الغرب وكفى ، بل أثبتت أمراً آخر وهو ان شعباً آسيوياً بمجرد ارادته وعزيمته عرف ان يختار ما رآه الاصلح له من مدنية الغرب (تأمل جيداً) مع الاحتفاظ باستقلاله وقوميته وعقليته وآدابه وثقافته» اهـ.

وقبلاً كنت نشرت في الجرائد – وما نشرته لم يكن إلا نقطة من غدير – خلاصة الحفلات التي اقامها اليابانيون لتتويج عاهلهم منذ سنتين وكيف استمرت مراسم هذا الاحتفال مدة شهر ، وكانت بأجمعها دينية ، وكيف ان الميكادو هو كاهن الامة الاعظم ، وكيف انه من سلالة الآلهة (الشمس) وكيف اغتسل في الحمام المقدس المحفوظ من ألفي سنة ، وكيف أكل مع الآلهة الارز المقدس الذي زرعته الدولة تحت اشراف الكهنة حتى يكون تام القدسية لا شبهة فيه ، وكيف كان ثمة في الحفل ستماية ألف ياباني وكلهم يهتفون ليحي الميكادو عشرة آلاف سنة الى غير ذلك .

لماذا لا نسمي اليابان واوروبا رجعية بتدينهما

فلماذا ، يا ليت شعري ، تتقدم اليابان هذا التقدم السريع المدهش وتصير هذه الأمة أمة عصرية يضرب برقيها المثل وهي تضرب بأعراقها الى عقائد وعادات ومنازع مضى عليها ألفا سنة ، ويكون امبراطورها هو كاهنها الاعظم ، ولا يقال عنها (رجعية) و (مرتجعة) و (ارتجاعية) ومتأخرة ومتقهقرة (فان كانت اليابان رجعية فمرحى بالرجعية) .

ولماذا كان ملك انكلترة وامبراطور الهند السيد على ٤٥٠ مليون آدمي في الارض من البيض والسمر والصفر والحمر والسود هو رئيس الكنيسة الانكليكانية ومجالسه النيابية تبحث في جلسات عديدة في قضية الخبز والخمر هل يستحيلان بمجرد تقديس القسيس الى جسد المسيح ودمه فعلاً دون أدنى شك أم ذلك قبيل الرمز والتمثيل [1] ؟ ولا يقال عنه انه (رجعي) ولا يقال

---

(١) لم يحدث التاريخ عن مسألة من مسائل انكلترة الداخلية اخذت في الأهمية الدور الذي أخذته قضية «الأفخاريستا» وهي قضية تحول الخبز والخمر الى جسد المسيح . وأصل هذه العقيدة ما رواه الانجيل من ان السيد المسيح عليه السلام قبل صعوده الى السماء تعشى مع تلاميذه وودعهم ، وبينما هو على المائدة تناول لقمة من الخبز وقال: كلوا هذا هو جسدي . وشرب جرعة من الخمر وقال : اشربوا هو ذا دمي . فتكونت من هذه الكلمات في النصرانية عقيدة معناها =

عن دولته العظمى أنهـا (متأخرة) أو (متقهقرة) فان كانت انكلترة بعد هذا متقهقرة فيا حبذا (التقهقر) .

ولمـاذا كانت القارة الاوروبية كلها مسيحية مفتخرة بمسيحيتها ، تتباهى

= ان الخبز والخمر يستحيلان الى جسد الرب تماماً وحقيقة لا مجازاً ، ولما كان القسيس عندهم هو خليفة المسيح كان لا بد له كل يوم عند التقديس في الكنيسة أن يتنـاول لقمة من الخبز ويشرب رشفة من الخمر وهو يتلفظ بنفس الكلمات التي تفوه بها السيد المسيح عليه السلام في أثناء عشائه مع الحواريين. فمتى فعل ذلك تحول هذا الخبز وهذا الخمر الى جسد الرب حقيقة لا مجازاً، ولذلك يوضع هذا الخبز ويسمونه القربان في حق ثمين فوق المذبح من الكنيسة ويسجدون له وذلك باعتبار ان هذا القربان هو الإله نفسه، ويسمون وجود الإله فيه « بالحضور الحقيقي » وبالافرنسية Présence réelle وهذا من اعظم الأسرار المقدسة عندهم. وإذا اشرف المريض على الموت جاء القسيس وتلقى منه الاعتراف بذنوبه وناوله هـذا القربان فقيل أنـه ذهب الى الآخرة متزوداً الأسرار الإلهية . وقد كانت هذه العقيدة هي عقدة المسيحيين جميعاً ولا تزال عقيدة اكثرهم الى اليوم الا انه جرى الاصلاح البروتستانتي تغير الاعتقـاد عند اتبـاعه بقضية الحضور الحقيقي وباستحالة الخبز والخمر اللذين يقدس عليهما القسيس الى جسد الرب ودمه حقيقة لا مجازاً . وقال البروتستانتيون ان هذا مجاز لا حقيقة وانه مجرد رمز وتذكار وعدلوا عن وضع القربان فوق المذبح والسجود له باعتبار انه هو الإله بذاته وصاروا في كنائس البروتستانت يجعلون هذا القربان في تجويف خاص به من الحائط ولكن الكنيسة الانكليكانية أي الكنيسة العليا في انكلترة لم يتفق رأيها في قضية القربان فحزب اليمين منها كان باقياً على عقيدته الاصليةوهي ان الخبز والخمر يستحيلان بتقديس الكاهن الى جسد الرب حقيقة لا مجازاً.وحزب الوسط مع حزب اليسار كانا يقولان ان كلمات السيد المسيح هذه لم تكن إلا رمزاً وأنه لا يمكن ان يتحول الخبز والخمر تحت تقديس الكاهن الى جسد الرب ودمه واعتمدوا في رفض العقيدة الكاثوليكية على (كتاب الصلاة) الذي هو دستور الكنيسة الانكليكانية وهو كتاب وضعه بروتستانتيو الانكليز لمذهبهم يوم انشقوا عن الكنيسة الرومانية .

ولما كانت هذه المسألة مسألة خلافية بين اتباع الكنيسة الانكليكانية وقد عمل فيها كل فريق برأيه وخيف فيهـا من انشقاق عام أمرت الحكومة البريطانية بتأليف مجمع من الأساقفة تحت =

بذلك في كل فرصة ، متحدة في هذا الأمر على مـــا بينها من عداوات ومنافسات ، ولا تنبذهـا حتى يقولنا (رجعية) و (ارتجاعية) والحال ان الديانة التي تدين بها اوروبة عمرها ١٩ قرناً .

وهذا عهد يصح أن يقال عنه قديم (وقديم جداً) وهؤلاء اليهود مهما

= رئاسة إمامهم الاكبر رئيس أساقفة كنتربري لأجل التدقيق في هذه المشكلة وحلها على أحد الوجهين . فانعقد المجمع وذلك منذ أربعين سنة ولم يوفق الى حل يرضي الفريقين وأخيراً ألحت الحكومة على هؤلاء الأساقفة بأن يبتوا في القضية ان لم يكن بالاجماع فبأكثرية الآراء فحكموا بالأكثرية وخالف في الحكم ستة من المطارين وذلك بأن الخبز والخمر يستحيلان في قداس الكاهن الى جسد المسيح ودمه وعليه تجب عبادتها والسجود لها ووضعها في أعلى المذبح لا في كوة حائط الكنيسة . وبالاختصار رجع أكثر المطارين في هذه المسألة الى العقيدة البابوية ، ولما كان القانون الأساسي لبريطانية العظمى يوجب أن يكون القول الفصل في جميع هذه القضايا الدينية لمجلس اللوردات ولمجلس العموم عملا بكتاب الصلاة الذي هو مرجع الأمـــة الانكليزية أحيل حكم المطارين هذا الى مجلس اللوردات ، وكانت للمناقشات فيه جلسات متعددة بلغت من اهتمام الملأ ما لم تبلغه المناقشات في أية مسألة .

وقيل إن بعض اللوردات ممن بلغ بهم الكبر عتياً قد حملوا الى المجلس على الاكف حتى لا يفوتهم سماع هذه المناقشات . وأخيراً أيد مجلس اللوردات بالأكثرية قرار مجمع الأساقفة ولم يكن ذلك كافياً ، إذ كان لا بد لامضاء الحكم من قرار مجلس الأمة الذي يقال له مجلس العموم .

فلما جاءت القضية الى مجلس الأمة نزع بأكثرية أعضائه عرق العصبية البروتستانتية وكان في مقدمتهم ناظر الداخلية البريطانية فنقضوا قرار مجلس اللوردات وحكم مجمع الأساقفة وقرروا ان الخبز والخمر لا يستحيلان بالبداهة الى جسد السيد المسيح عليه السلام ودمه وتوكأوا في ذلك على « كتاب الصلاة » الذي هو دستور الكنيسة الانكليكانية الوحيد ولم يوافقوا مجمع الأساقفة إلا على زيادة العبارات التي زادهـــا في الدعاء للملك افكلترة . وعلى أثر هـذا القرار من مجلس العموم استعفى رئيس أساقفة كنتربري من منصبه .

وإنا أتينا على ذكر هذه الحادثة التي ليست موضوعنا مباشرة إثباتاً لأمرين أولهما استمساك =

ننكر عليهم من الفضائل فلا نقدر ان ننكر عليهم المقدرة والذكاء والحس العملي والجد الهائل — لا يزالون يفخرون بتوراة وجدت منذ آلاف السنين ويشاركهم فيها المسيحيون .

ولماذا نرى اعظم شبان اليهود رقياً عصرياً يجاهدون في إحياء اللغة العبرية التي لا يعرف مبدأ تاريخها لتوغلها في القدم ، ولا يقال عنهم انهم رجعيون ومتأخرون وقهقريون ؟

وقد نشر وايزمان رئيس الجمعية الصهيونية حديثاً في جريدة (الماتن) كان من أهم ما فخر به وأدلى به كمأثرة ينبغي ان تذكرها لهم الانسانية هو (-ان فلسطين الحديثة تتكلم اليوم بأجمعها بلغة الأنبياء) يريد بفلسطين الحديثة فلسطين اليهودية التي قد نشر الصهيونيون فيها اللغة العبرانية القديمة وأجبروا نشئهم الجديد على أن يتحدثوا بها لتكون اللغة الجامعة لليهود . ومن الذي

= الأمة الانكليزية بمبادئها الدنيوية وشدة اهتمامها بهذه المباحث مع انها في طليعة الأمم الراقية بلا نزاع والثاني تشدق من يقول ان أوروبة نبذت الدين ظهرياً ومن يقول ان أوروبة فصلف الدين عن السياسة وان هذا الفصل كان نجاحها وأنه حري بالمسلمين أن ينهجوا نهجها إن كانوا يريدون لأنفسهم رقياً كرقي الأوروبيين وسلطاناً في الارض كسلطانهم . فأين فصل الدين عن السياسة هنا ؟

وهذا « كتاب الصلاة » هو الذي اعتمد عليه مجلس العموم في نقض قرار مجلس اللوردات . وأين فصل الدين عن السياسة وأنت ترى ان مسألة دينية بحتة تطرح في مجلس اللوردات ومجلس النواب ويفصلان فيها فان لم تكن هذه المسألة دينية فما الديني إذاً ؟ وإن لم يكن مجلسا الشيوخ والنواب مختصين بالسياسة فما المجالس التي تختص بالسياسة بعدهما ؟ فليتأمل القارىء المنصف مدى التضليل الذي يقوم به المضللون من المسلمين الجغرافيين إما جهلا وتعامياً عن الحقيقة وإما خدمة للاستعمار الأوروبي الذي ليس له غرض أعز عليه من ان يأتي على بنيان الاسلام من القواعد (ش) .

فعل هذا ؟ الجواب هم اليهود العصريون الذين هم أشد الناس أخـذاً بمبادىء العلم الحديث والحضارة العصرية .

وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ [1] .

وماذا عساني أحصي من هذه الأماثيل والعبر في رسالة وجيزة كهذه ؟

كل قوم يعتصمون بدينهم ومقومـات ملتهم ومشخصات قومهم الموروثة ولا ينبزون بهذه الالقاب إلا المسلمين !

فإنه إذا دعاهم داع الى الاستمساك بقرآنهم وعقيدتهم ومقوماتهم ومشخصاتهم وباللسان العربي وآدابه والحياة الشرقية ومناحيها قامة قيامة الذين في قلوبهم مرض ... وصاحوا : لتسقط الرجعية . وقالوا : كيف تريدون الرقي وأنتم متمسكون بأوضاع بالية باقية من القرون الوسطى ونحن في عصر جديد .

جميع هؤلاء الخلائق تعلموا وتقدموا وترقوا وعلوا وطاروا في السماء والمسيحي منهم باق على انجيله وتقاليده الكنسية ، واليهودي باق على وثنه وأرزه المقدس ، وكل حزب منهم فرح بما لديه وهذا المسلم المسكين يستحيل ان يترقى إلا إذا رمى بقرآنه وعقيدته ومآخذه ومتاركه ومنازعه ومشاربه ولباسه وفراشه وطعـامه وشرابه وأدبه وطربه وغير ذلـك وانفصل من كل تاريخه ، فان لم يفعل ذلك فلا حظ له من الرقي ؟

فهذا ما كان من ضرر الجامد الذي يقصد السوء بالاسلام وبالشرق أجمع ويخدع السذج بأقاويله .

---

(١) من الآية : ٢٦٩ من البقرة .

غوائل الجامدين في الاسلام والمسلمين

وبقي علينا المسلم الجامد ، الذي ليس بأخف ضرراً من الجاحد ، وان كان لا يشركه في الخبث وسوء النية ، وإنما يعمل ما يعمله عن جهل وتعصب .

فالجامد هو الذي مهد لأعداء المدنية الاسلامية الطريق لمحاربة هذه المدنية محتجين بأن التأخر الذي عليه العالم الاسلامي إنما هو ثمرة تعاليمه .

والجامد هو سبب الفقر الذي ابتلي به المسلمون لأنه جعل الاسلام دين آخرة فقط . والحال ان الاسلام هو دين دنيا وآخرة . وان هذه مزية له على سائر الأديان . فلا حصر كسب فيما يعود للحياة التي وراء هذه كما هي ديانات أهل الهند والصين ، ولا زهده في مال الدنيا وملكها ومجدها كتعاليم الانجيل ، ولا حصر سعيه في أمور هذه المعيشة الدنيوية كما هي مدنية اوروبة الحاضرة .

والجامد هو الذي شهر الحرب على العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية وفنونها وصناعاتها بحجة انها من علوم الكفار . فحرم الاسلام ثمرات هذه العلوم ، وأورث أبناءه الفقر الذي هم فيه وقص أجنحتهم ، فان العلوم الطبيعية هي العلوم الباحثة في الأرض . والأرض لا تخرج افلاذها إلا لمن

يبحث فيها [1] فان كنا طول العمر لا نتكلم إلا فيما هو عائد للآخرة قالت لنا الأرض : إذهبوا تواً الى الآخرة فليس لكم نصيب مني .

ثم إننا نحصر كل مجهوداتنا في هذه العلوم الدينية والمحاضرات الأخروية جعلنا أنفسنا بمركز ضعيف بإزاء سائر الأمم التي توجهت الى الأرض ، وهؤلاء لم يزالوا يعملون في الأرض ونحن ننحط في الأرض ، الى ان صار الأمر كله في يدهم ، وصاروا يقدرون ان يأفكونا عن نفس ديننا فضلاً عن ان يملكوا علينا دنيانا ومن ليست له دنيا فليس له دين وليس هذا هو الذي يريده الله بنا وهو الذي قال :

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ الآية [2] .

وقال :

هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً [3] .

وقال :

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ

---

(١) كان جدي الأدبي رحمه الله تعالى يقول : ان جار عليك الزمان فعليك ان تجور على الأرض . أي تلح وتجتهد في استخراج خيراتها (ر) .

(٢) النور : من الآية ٥٥ .

(٣) البقرة : من الآية ٢٩ .

ٱلرِّزْقِ ؟ قُلْ هِيَ لِلذِينَ آمَنُوا فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ [1] .

وقال فيما حكاه وأقره :

وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا [2] .

وعلمنا ان ندعوه بقوله :

رَبَّنَا آتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً [3] الخ ...

والمسلم الجامد لا يدري انه بهذا المشرب يسعى في بوار ملته وحطها عن درجة الأمم الأخرى ، ولا يتنبه لشيء من المصائب التي جرها على قومه اهمالهم للعلوم الكونية حتى أصبحوا بهذا الفقر الذي هم فيه ، وصاروا عيالاً على أعدائهم الذين لا يرقبون فيه إلا ولا ذمة ، فهو إذا نظر الى هذه الحالة علمها بالقضاء والقدر بادىء الرأي ، وهذا شأن جميع الكسالى في الدنيا يحيلون على الاقدار .

هذا الخلق هو الذي حبب الكسل الى كثير من المسلمين فنجمت فيهم فئة يلقبون « بالدراويش » ليس لهم شغل ولا عمل ، وليسوا في الواقع إلا اعضاء مشلولة في جسم المجتمع الاسلامي .

---

(١) الاعراف : من الآية ٣٢ .

(٢) القصص : من الآية ٧٧ .

(٣) البقرة : من الآية ٢٠١ .

وهذا الخلق بعينه هو الذي جعل الافرنج يقولون أن الاسلام جبري لا يأمر بالعمل ، لأن ما هو كائن هو كائن ، عمل المخلوق أم لم يعمل .

آيات العمل المبطلة لتفسير القدر بالجبر والكسل :

ولا شيء أدل على فساد هذا الزعم الافرنجي من القرآن الملآن بالحث على العمل وباستنهاض الهمم ، وابتعاث العزائم ، ونوط الثواب والعقاب والفوز والفشل بالعمل الذي يعمله المكلف . قال الله تعالى :

وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ (١) .

وقال تعالى :

وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ (٢) .

وقال تعالى :

وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ (٣) .

وقال تعالى :

لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُم (٤) .

---

(١) التوبة : من الآية ١٠٥ .

(٢) يونس : من الآية ٤١ .

(٣) التوبة : من الآية ٩٤ .

(٤) البقرة : من الآية ١٣٩ .

وقال تعالى :

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (١) .

وقال تعالى :

وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٢) . أي لا ينقصكم اعمالكم .

وقال تعالى :

وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً (٣) .

لا يلتكم من لاته يليته أو ولته يلته بمعنى نقصه ، أي لا يبخسكم من اعمالكم شيئاً ، وقال تعالى :

نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (٤) .

وقال عز وجل :

وَإِنَّ كلاً لَمَا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ (٥) .

---

(١) محمد : من الآية ٣٣ .

(٢) محمد : من الآية ٣٥ .

(٣) الحجرات : من الآية ١٤ .

(٤) هود : من الآية ١٥ .

(٥) هود : من الآية ١١١ .

وقال عز وجل :

وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١) .

وقال عز وجل :

أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ (٢) .

وقال عز وجل :

فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٣) .

وقال عز وجل :

لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٤) .

وقال عز وجل :

إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ (٥) .

وقال عز وجل :

وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ (٦) .

---

(١) الاحقاف : من الآية ١٩ .

(٢) آل عمران : من الآية ١٩٥ .

(٣) الزمر : من الآية ٧٤ .

(٤) الصافات : من الآية ٦١ .

(٥) فاطر : من الآية ١٠ .

(٦) النحل : من الآية ١١١ .

وقال عز وجل :

مَنْ عَمِـــلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١) .

وقال عز وجل :

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً (٢) .

وقال عز وجل :

وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣) .

وقال عز وجل :

فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا (٤) .

وقال تبارك وتعالى :

وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً (٥) .

---

(١) النحل : ٩٧ .

(٢) آل عمران : ٣٠ .

(٣) الزمر : ٧٠ .

(٤) النحل : من الآية ٣٤ .

(٥) الكهف : من الآية ٥٠ .

وقال تبارك وتعالى :

لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا [1]

وقال تعالى :

إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ ٱلضِّعْفِ بِما عَمِلُوا [2] .

وقال تعالى :

وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ [3] .

وقال تعالى :

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ [4] .

وقال تعالى :

سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [5] .

---

(١) الروم : من الآية ٤١ .

(٢) سبأ : من الآية ٣٧ .

(٣) الاحقاف : ١٩ .

(٤) الزلزال : الآيتان ٧ و ٨ .

(٥) الاعراف : من الآية ١٧٩ .

وقال تعالى :

جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [1] .

وقال تعالى :

وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [2] .

الى غير ذلك مما لا يكاد يحصى من الآيات التي امتلأ بها القرآن ومنها ما هو نص في مسألتنا هذه كقوله تعالى :

وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ [3] .

وقوله تعالى :

أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا ؟ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ [4] .

إن صاحب السؤال يعلم وأكثر المسلمين لا يعلمون ان هذه الآية خاطب الله تعالى بها أكمل هذه الأمة إيمانـــاً وإسلاماً وهم أصحاب رسول الله ﷺ إذ تعجبوا من ظهور المشركين عليهم في غزوة أحد فرد الله عليهم ببيان السبب وهو مخالفتهم أمره ﷺ للرمـــاة الذين يحمون ظهور المقاتلة بألا يبرحوا أماكنهم سواء كان الغلب للمسلمين أو عليهم ، فلما انهزم المشركون خالفوا

---

(١) السجدة : من الآية ١٧ والاحقاف : من الآية ١٤ والواقعة : من الآية ٢٤ .

(٢) العنكبوت : من الآية ٥٥ .

(٣) الشورى : من الآية ٣٠ .

(٤) آل عمران : من الآية ١٦٥ .

الأمر لمشاركة المقاتلين في الغنيمة ، فكر عليهم المشركون حتى شُجّ رأس النبي ﷺ الخ ...

وكلها ناطقة بأن الاسلام هو دين العمل لا دين الكسل ولا هو دين الاتكال على القدر المجهول للبشر ، كما يقول الدراويش البطالون :

رزقنا على الله عملنا أم لم نعمل ، كما يزين للناس بعض مؤلفي الافرنج من ان دين الاسلام دين جمود وتفويض وتسليم ، وان تأخر المسلمين إنما نشأ عن ذلك، ولو كان في هذه الدعوى ذرة ما من الصحة لما نهض الصحابة أخير الناس بالاسلام وفتحوا نصف كرة الأرض في خمسين سنة : ولكن التسليم الذي يتكلمون عليه ويهرفون فيه بما لا يعرفون إنما هو مقرون بالعمل وبالكدح وبالسعي وإلا فلا يسمى تسليماً بل يسمى جموداً، ويعد بطالة وهو مخالف للقرآن وللسنة .

وأما إذا كان التسليم لله مقروناً بالعمل فانه أنفع في الدنيا والآخرة لأن افراط المرء في الاعتماد على نفسه يورطه في البطر إذا نجح ، وفي الجزع إذا فشل . والذي يريده الاسلام إنما هو ان يعقل الانسان ويتوكل [1] وان يدبر لنفسه بهداية عقله الذي جعله الله مرشداً ، ويعلم مع ذلك ان ليس كل الأمر بيده ، وان من الاقدار ما لا تدركه الأفكار . وهذا صحيح ، ولما ذكر النبي ﷺ القدر سأله بعض أصحابه ألا نتكل ؟ فقال :

اعمَلُوا فَكُل مُيَسر لِمَا خُلِقَ لَهُ .

---

(١) في قوله يعقل هنا تورية لاحتماله معنيين : ظاهرهما تحكيم ادراك العقل في الامور مع التوكل على الله ، والثاني عقل الناقة المراد به الأخذ بالاسباب مع التوكل على الله ، اذ فيه اشارة الى حديث الاعرابي المشهور بين الناس حتى صار مثلا « اعقلها وتوكل » وفي رواية « قيدها وتوكل » يعني ناقته فلم يأذن له (ص) ان يتركها توكلا على الله تعالى (ر) .

رواه البخاري ومسلم .

ومن أغرب الغرائب ان هؤلاء الافرنج الذين لا يفتأون ينعتون الاسلام بالجبرية وينسبون تأخر المسلمين الى هذه العقيدة – التي كان يقول بها فئة قليلة من المسلمين – يذهلون عما هو وارد في الانجيل من آيات القضاء والقدر التي تماثل ما في القرآن وقد تزيد عليه مثل قوله: لا تسقط شعرة من رؤوسكم إلا بإذن ابيكم السماوي. ومثل آي كثيرة لو أردت استقصاءها لطال المقال.

ولا نجد في الافرنج الذين هم مغرمون بالعمل وهائمون وراء الكسب ومنكرون للقضاء والقدر في الجملة ، إلا من يقرأ الانجيل الشريف ويقدسه ويعجب بمبادئه السامية كما نعجب بها نحن . فما بالهم نسوا ما فيه من آيات القضاء والقدر ؟ وما بالهم لم يصفوا أقوال المسيح صلوات الله عليه بالجبرية ؟

يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً [1] .

وحقيقة الأمر ان كل ما هو وارد في الانجيل وكل ما هو وارد في القرآن من آيات القضاء والقدر إنما كان مقصوداً به سبق علم الله بكل ما يقع [2] ولم يكن مقصوداً به نفي الاختيار والتزهيد في الكسب .

---

(١) التوبة : من الآية ٣٨ .

(٢) هذا التفسير قول لبعض المتكلمين وهو ان تعلق علم الله بوجود المخلوقات في الأزل هو القضاء ورجودها على وفق العلم هو القدر ، وقال بعضهم انه تعلق الارادة الخ . والتحقيق ان القدر والمقدار هو النظام الذي جرت به سنن الله تعالى في التكوين والتدبير والاسباب والمسببات كما يفهم من نصوص الايات كقوله تعالى: (وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم).

وقوله : (وأنزلنا من السماء ماء بقدر) الاية – وقوله في نظام جعل النطفة في الرحم : (الى قدر معلوم) وقوله : (ثم جئت على قدر يا موسى) وقد حققنا المسألة في المنار والتفسير مراراً (ر) .

وفي حديث الوزنتين والوزنات وغير ذلك من مواعظ الانجيل الشريف ما يدل على ما عزاه القرآن الكريم الى صحف ابراهيم وموسى اي وغيرهما من رسل الله .

أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ للإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ ٱلْجَزَاءَ ٱلْأَوْفَى [1] .

(١) النجم : الايات : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ .

كون المسلمين الجامدين فتنة لاعداء الاسلام وحجة عليه

ونعود الى المسلم الجديد فنقول : انه هو الذي طرّق لاعداء الاسلام على الاسلام ، وأوجد لهم السبيل الى القالة بحقه ، حتى قالوا انه دين لا يأتلف مع الرقي العصري ، وانه دين حائل دون المدنية .

والحقيقة ان هؤلاء الجامدين هم الذين لا تأتلف عقائدهم مع المدنية ، وهم الذين يحولون دون الرقي العصري والاسلام براء من جماداتهم هذه .

إن الاسلام هو من أصله ثورة على القديم الفاسد ، وجبٌّ للماضي القبيح ، وقطع كل العلائق مع غير الحقائق ، فكيف يكون الاسلام ملة الجمود ؟ والقرآن هو الذي جاء فيه من قصة ابراهيم عليه السلام :

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ [1] .

(١) الانبياء : الايات من ٥٢ الى ٥٤ .

وجاء فيه :

قَالُوا : نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ .

قَالَ : هَـــلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ؟

قَالُوا : بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ .

قَالَ : أَفَرَأَيْتُمْ مَـــا كُنْتُمْ تَعْبُـــدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ [1] .

وجاء فيه :

إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ .

قَالَ : أَوَلَو جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ [2] .

وجاء فيه :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَـــا

---

(١) الشعراء : الايات من ٧١ الى ٧٧ .

(٢) الزخرف : من الايتين ٢٣ و ٢٤ .

أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ (١) .

وجاء فيه :

سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَاءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ؟ قُلْ لِلّٰهِ ٱلْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢) .

وغير ذلك من الآيات الداعية الى الثورة على القديم إذا لم يكن صحيحاً ولم يكن صالحاً .

على أن الذين يفهمون الاسلام حق الفهم يرحبون بكل جديد لا يعارض العقيدة ، ولا تخشى منه مفسدة . ولا أظن شيئاً يفيد المجتمع الاسلامي يكون مخالفاً للدين المبني على إسعاد العباد . أفلا ترى علماء نجد وهم أبعد المسلمين عن الافرنج والتفرنج ، وأنآهم عن مراكز الاختراعات العصرية ، كيف كان جوابهم عندما استفتاهم الملك عبد العزيز بن سعود أيده الله في قضية اللاسلكي والتلفون والسيارة الكهربائية ؟ أجابوه انها محدثات نافعة مفيدة ، وانه ليس في كتاب الله ولا في سنة رسول الله لا بالمنطوق ولا بالمفهوم ما يمنعها .

---

(١) البقرة : ١٧٠ .

(٢) البقرة : ١٤٢ .

أفليس الأدنى لمصلحة الأمة ان تقدر الدولة على معرفة أي حادث يحدث بمجرد وقوعه حتى تتلافى أمره ؟ أفليس الأنفع للمسلمين ان يتمكن الحاج ببضع ساعات من اجتياز المسافات التي كانت تأخذ أياماً ولياليَ ، لقد سألت الشيخ محمد بن علي بن تركي من العلماء النجديين الذين بمكة عن رأيه في التلفون واللاسلكي فقال لي :

هذه مسألة مفروغ منها ، وأمر جوازها شرعاً هو من الوضوح بحيث لا يستحق الأخذ والرد .

ولم تكن مقاومة الجديد خاصة بجامدي الاسلام ، فقد قاومت الكنيسة في النصرانية كل جديد تقريباً من قول أو عمل ، ثم عادت فيما بعد فأجازته . ولما قال « غاليله » بدوران الأرض كفرته ، ولا يزال يوجد الى اليوم من أحبار النصارى من يكفر كل مخالف لما جاء في التوراة من كيفية التكوين ، ومن سنتين حوكم أحد المعلمين في محاكم احدى الولايات المتحدة لقوله بنظرية داروين ومنع من التدريس ، ولكن هذا لا يمنع سير العلم في طريقه [1] .

فالنصارى عندهم جامدون كما عندنا جامدون ، والمسلم الجامد يحارب كل علم غير العلم الديني التقليدي الذي ألفه ، حتى انه ليحارب من لا يعتد في دينه إلا بالكتاب والسنة ، وينسى ان العلوم الطبيعية والرياضية والهندسة وجر الأثقال والفلك والطب والكيمياء وطبقات الأرض وكل علم يفيد الاجتماع البشري هي علوم دينية ان لم تكن مباشرة فمن حيث

---

(١) وقد تألف في انكلترة وأمريكة حزب ديني جديد أو جمعية للدعوة الى الايمان بظواهر التوراة في الخلق والتكوين وكل شيء من غير تأويل (راجع ص ٧٢٣ م ٣٠ المنار . (ر) .

النتيجة [1] وكم جرى تدريس هـذه العلوم في الأزهر الأموي والزيتونـة والقرويين وقرطبة وبغداد وسمرقند وغيرها عندمـا كان للاسلام دول كبار وأعاظم رجال ، وكم نبغ في الاسلام من عظماء جمعوا بين الحكمة والشريعة ، ونظموا بـين الحديث والرياضة ، وإن اكـبر فيلسوف عربي اشتهر اسمه في اوروبة هو القاضي ابن رشد وقد كان من أكابر الفقهاء .

(١) أي من باب قول العلماء : ما لم يتم الواجب المطلق إلا به فهو واجب . وقد بينا في تفسير (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) ان آلات القتال البرية والبحرية والجوية واجبة بنص هذه الاية لانها من القوة المستطاعة للمسلمين كما هي مستطاعة لغيرهم ، فليس وجوبها بقاعدة ما لا يتم الواجب الا بـــه فهو واجب بل بنص القرآن ودلالة المنطوق منه فراجع تفسيرها في ص ٦١ ج ١٠ من تفسير المنار (ر) .

مدنية الاسلام

أمـــا زعم من زعم ان الاسلام لم يتمكن من تأسيس مدنية خاصة والاستدلال على ذلك بحالته الحاضرة ، فهو خرافة يموه بهـــا بعض أعـداء الاسلام من الخارج ، وبعض جاحديه من الداخل ، امـا القسم الأول فلأجل ان يصبغوا المسلمين بالصبغة الأوروبية ، وأما القسم الثاني فلأجل أن يزرعوا في العالم الاسلامي بذور الالحاد، ونحن لا ننكر تأثير الدين في المدنية ولكننا لا نسلم بأنه يصح ان يكون لهـا ميزاناً ، وذلك لأنه كثيراً ما يضعف تأثير الدين في الأمم فتفلت من قيوده وتفسد اخلاقها وتنهـار أوضاعها ، فيكون فساد الأخلاق هو علة السقوط ، ولا يكون الدين هو المسؤول ، وكثيراً ما تطرأ عوامل خارجية غير منتظرة فتتغلب على ما أثلته الشرائع من حضارة، وتزلزل اركانهـا ، وقد تهدمها من بوانيهـا ، ولا يكون القصور من الشريعة نفسها ، فتأخر المسلمين في القرون الأخيرة لم يكن من الشريعة؛ بل من الجهل بالشريعة ، أو كان من عدم إجراء أحكامهـا كما ينبغي . ولمـا كانت الشريعة جارية على حقها كان الاسلام عظيماً عزيزاً .

وأي عظمة أعظم مما كان الإسلام في أيام عمر بن الخطاب مثلاً .

ومدنية الإسلام قضية لا تقبل المماحكة إذ ليس من أمة في أوروبة سواء الالمان أو الفرنسيس أو الانكليز أو الطليان الخ. إلا وعندهم تآليف لا تحصى

في (مدنية الإسلام) فلو لم تكن للاسلام مدنية حقيقية سامية راقية مطبوعة بطابعه، مبنية على كتابه وسنته، ما كان علماء أوروبة حتى الذين عرفوا منهم بالتحامل على الإسلام يكثرون من ذكر المدنيـة الإسلامية، ومن سرد تواريخها [1]، ومن المقابلة بينهـا وبين غيرها من المدنيات، ومن تبيين الخصائص التي انفردت بها.

فالمدنية الإسلامية هي من المدنيات الشهيرة التي يزدان بها التاريخ العام، والتي تغص سجلاته الخالدة بمآثرها الباهرة.

وقد بلغت بغداد في دور المنصور والرشيد والمأمون من احتفال العمارة، واستبحار الحضارة وتناهي الترف والثروة، مـا لم تبلغه مدينة قبلها ولا بعدها إلى هـذا العصر، حتى كان أهلهـا يبلغون مليونين ونصف مليون من السكان، وكانت البصرة في الدرجـة الثانية عنها، وكان أهلها نحو نصف مليون.

وكانت دمشق والقاهرة وحلب وسمرقنـد واصفهان وحواضر أخرى كثيرة من بـلاد الاسلام أمثلة تامـة وأقيسة بعيـدة في استبحار العمران، وتطاول البنيان، ورفاهة السكان، وانتشار العلم والعرفان، وتأثل الفنون المتهدلة الافنان.

وكانت القيروان وفاس وتلمسان ومراكش في المغرب أعظم وأعلى من أن يطاولها مطاول، أو يناظرها مناظر، أو أن يكاثرها مكاثر في ممالك أوروبة حتى هذه القرون الأخيرة.

---

(١) وقد ألف عصبة من الاوروبيين المستشرقين معلمة اسمها «إنسيكلوبيدية الاسلام» وتحامل فيها بعضهم على الاسلام وبخسوه من أشيائه ولكنهم لم يقدروا ان يجحدوا انفراده بمدنية خاصة به.

- وكانت قرطبة مدينة فذة في أوروبة لا يدانيها مدان ، وكان عدد سكانها نحو مليون ونصف مليون نسمة ، وكان فيها نحو سبعمائة جامع، عدا المسجد الاعظم الذي لما زرته في هذا الصيف قال لي المهندس الذي كان معي من قبل الحكومة الاسبانيولية : إنه يسع بحسب مساحته خمسين الف مصلّ في الداخل و ٣٠ الف مصلّ في الصحن ، فجملة من يسعهم هذا المسجد العجيب ثمانون الفاً من المصلين .

ولما ذهبنا الى آثار قصر الزهراء رأيناها آثار مدينة لا آثار قصر واحد، وعلمنا أنها تمتد على مسافة تسعمائة متر طولاً في ثمانمائة متر عرضاً، والاسبانيون يقولون : مدينة الزهراء .

وقال لي المهندسون الموكلون بالحفر على آثارها ، انهم يرجون الاتيان على كشفها كلها من الآن الى خمسين سنة .

وحسبك أن غرناطة التي كانت حاضرة كانت مملكة صغيرة في آخر أمر المسلمين بالاندلس لم يكن في اوروبة في القرن الخامس عشر المسيحي بلدة تضاهيها ولا تدانيها ، وكان فيها عندما سقطت في أيدي الاسبانيول نصف مليون نسمة ، ولم تكن وقتئذ عاصمة من عواصم أوروبة تحتوي نصف هذا العدد ، وحمراء غرناطة لا تزال يتيمة الدهر الى اليوم .

هذه لمحة دالة من مآثر حضارة الإسلام وغرر أيامه ، وإلا فلو استقصينا كل ما أثر المسلمون في الأرض من رائع وبديع لم تسع ذلك الجلود الكثيرة المرصوفة طبقاً فوق طبق .

وكم حرر المؤرخون الاوروبيون تحت عنوان (مدنية الإسلام) كتباً قيمة ومجاميع صور تأخذ بالأبصار ، وان أشد مؤرخي الافرنج تحاملاً على الإسلام لا يتعدى ان يحاول التصغير من شأن مدنيته ، وأن ينكر كونه أبا

عذرتها ، فقصارى هـذه الفئة أن ينكروا كون المسلمين قد ابتكروا علوماً وسبقوا الى نظريات صارت خاصة بهم ، وغايتهم أن يقولوا :

ان المسلمين لم يزيدوا على ان نقلوا وأذاعوا وكانوا واسطة بين المشرق والمغرب .

وهذا القول مردود عند المحققين الذين يعرفون للمسلمين علوماً ابتكروها، وحقائق كشفوها وآراء سبقوا اليها ، فضلاً عما زادوا عليه وأكملوه ، ومـا نشروه ونقلوه ، ومن استرقَ شيئاً وقد استرقّه ، فقد استحقه .

وبعد فلم نعلم مدنية واحدة من مدنيات الأرض إلا وهي رشح مدنيات سابقة وآثار آراء اشتركت بهـا سلائـل البشرية ومجموع نتـائج عقول مختلفة الاصول ، ومحصول ثمرات ألباب متباينة الاجناس .

الرد على حساد
المدنية الاسلامية المكابرين

ايانى حسّاد الإسلام والمكابرون في عظمة فضله ، الزاعمون انه نقل وتعلم وقلد واقتدى ، وأنه إنما صلى وراء غيره — أن الغرب كان غلب على الشرق وان المدنية الشرقية يوم ظهر الإسلام كان أخفى عليها الذي أخفى على ليد ، وانه هو الذي جددها وأحيا آثارها ، وأقال عثارها ؟ وانها بعد ان كانت قد امحت ولحقت بالغابرين ، أبرزها من أصدافها، وجلاها من بعد ان كانت ملفوفة بغلافها ، ونشرها الى الخافقين ، وبلّجها كفلق الصبح لكل ذي عينين ، وأضفى عليها لباس الإسلام الخاص ، وديجها بديباجة القرآن ، التي لم تفارقها في شرق ولا غرب ، ولا سهل ولا غر ، حتى حمل ذلك كثيراً من علماء الافرنج ممن لم يعمه الهوى ، ولم يحد في التحقيق عن مهيع الهدى ، على ان اعترفوا بأن مدنية الإسلام لم تكن نسخاً ولا نقلاً،وإنما هي قد نبعت من القرآن ، وتفجرت من عقيدة التوحيد .

فأما ما ترجمته حضارة الإسلام من كتب ، وما أخذته عن غيرها من علوم ، وما أفادته في فتوحاتها من منازع جميلة ، وطرائق سديدة ، اخذتها عن غيرها فلا يقدح ذلك في بكارتها الإسلامية ، ومسحتها العربية ، لان هذا

شأن الحضارات البشرية بأجمعها ان يأخذ بعضها عن بعض ويكمل بعضها بعضاً ، فالحلم الحقيقي ينحصر في هذا الحديث الشريف « الحكمة ضالة المؤمن ينشدها ولو في الصين »[1] وهذه من اقدس قواعد الاسلام .

وعلى كل حـال لا يقـدر مكابر أن يكابر ان الإسلام كان له دور عظيم في الدنيا سواء في الفتوحات الروحية أو العقلية أو المادية ، وان هذه الفتوحات قد اتسقت له في دور لا يزيد على ثمانين سنة ، مما أجمع الناس على انه لم يتسق لأمة قبله أصلاً .

وكان نابليون الأول لشدة دهشته من تاريـــخ الاسلام يقول في جزيرة سنتهيلانة : ان العرب فتحوا الدنيا في نصف قرن لا غير .

وتأمل أيها القارىء في ان قائل هذا القول هو بونابرت الذي لم تكن تملأ عينيه الفتوحات مهما كانت عظيمة .

وَتَعْظَمُ فِي عَيْنِ ٱلصَّغِيرِ صِغَارُهَـــا

وَتَصْغَرُ فِي عَـيْنِ ٱلْعَظِيمِ ٱلْعَظَـائِمُ

فهذا رجـــل عظيم جداً استعظم حادث العرب الذي لم يسبق نظيره في التاريخ ، وقد بقي دور العرب هو الاول في وقتـه ، ولبثوا وهم المسيطرون في الارض ، لا يضارعهم مضارع ، ولا يغـالبهم مغالب ، مدة ثلاثـة قرون أو أربعة . ثم اخذوا بالانحطاط ، وجعلت ظـــلالهم تتقلص عن البلدان

---

(١) هذا مضمون حديثين احدهما « الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » رواه الترمذي من حديث أبي هريرة ، ورواه غيره بمعناه مع اختلاف في اللفظ . والثاني « اطلبوا العلم ولو بالصين » وذكره الكاتب في موضع آخر وهناك نذكر من اخرجه (راجع ص ٩٥) (ر).

التي كانوا غلبوا عليها شيئاً فشيئاً ، وذلك بفتور الهمم ، ودبيب الفساد الى الاخلاق ، ونبذ عزائم الدين ، واتباع شهوات الأنفس وأشد ما ابتلوا به التنافس على الامارات والرئاسات ، — ولا سيما بين القيسية واليمانية — مما لولاه لدانت لهم القارة الاوروبية بأجمعها ، وكانت الآن عربية كما هو المغرب.

فالمصائب التي حلت بالمسلمين إنما هي مما صنعته أيديهم ، ومما حادوا به عن النهج السوي الذي اوضحه لهم القرآن الذي لما كانوا عاملين بمحكم آيه علوا وظهروا وكانت لهم الدول والطوائل ، فلما ضعف عملهم به وصاروا يقرؤونه بدون عمل ، وانقادوا الى اهواء أنفسهم من دونه ، ذهبت ريحهم ، وولى السلطان الاكبر الذي كان لهم ، وانتقصت الاعداء اطراف بلادهم ، ثم قصدوا الى اوساطها وما زال الاعداء يفتحون من بلدان الإسلام حتى أصبح ثلاثمائة مليون مسلم تحت ولاية الاجانب ولم يبق في العالم سوى ٧٠ او ٨٠ مليون مسلم نقدر ان نقول انهم تحت ولاية أنفسهم .

ولنضرب الآن بعض أمثلة عن الأمم الاخرى لأجل المقابلة بيننا وبينهم إذ كانت « بضدها تتبين الاشياء » .

اليونان والرومان قبل النصرانية وبعدها :

كان اليونانيون قبل النصرانية أرقى أمم الارض أو من أرقى أمم الارض ، وكانوا واضعي أسس الفلسفة ، وحاملي ألوية الآداب والمعارف ، ونبغ منهم من لا يزالون مصابيح البشرية في العلم والفلسفة إلى يوم الناس هذا .

وكان الاسكندر المقدوني أعظم فاتح عرفه التاريخ او من أعظم الفاتحين الذين عرفهم التاريخ ، حاملاً للأدب اليوناني ، ناشراً لثقافة اليونان بين الأمم التي غلب عليها . وما كانت دولة البطالسة التي لمعت في الاسكندرية بعلومها

وفلسفتها إلا من بقايا فتوح الاسكندر . ثم لم تزل هذه الحالة الى ان تنصرت اليونان بعد ظهور الدين المسيحي بقليل ، فمذ دانت هذه الامة بالدين الجديد بدأت بالتردي والانحطاط وفقد مزاياها القديمـــة ، ولم تزل تنحط قرناً عن قرن ، وتتدهور بطناً عن بطن ، الى أن صارت بلاد اليونان ولاية من جملة ولايات السلطنة العثمانية . ولم تعد الى شيء من النهوض والرقي إلا في القرن الماضي ، واين هي مع ذلك الآن مما كانت قبل النصرانية ؟

أفيجب ان نقول ان النصرانية كانت المسؤولة عن انحطاط اليونان هذا ؟

ان القائلين بأن الاسلام قد كان سبب انحطاط الأمم الدائنة به لا مفر لهم من القول بأن النصرانية قد أدت ايضاً الى انحطاط اليونان التي كانت من قبلها عنوان الرقي .

ثم كانت رومية في عصرها الدولة العظمى التي لا يذكر معها دولة ، ولا يؤبه في جانب صولتها لصولة ، ولم تزل هكذا هي المسيطرة على المعمور الى أن تنصرت لعهد قسطنطين ، فمنذ ذلك العهد بدأت بالانحطاط مادة ومعنى ، الى ان انقرضت أولاً من الغرب ، وثانيـاً من الشرق ، ولم تسترجع رومية بعد انقراض الدولة الرومانية شيئاً من مكانتها الاولى وبقيت على ذلـك مدة ١٥ قرناً حتى استأنفت شيئاً من مجدها الغابر .

وما هي الى هذه الساعة ببالغة ذلك الشأو الذي بلغته أيام الوثنية .

أفنجعل تنصر الرومان هو العامل في انحطاط رومة وتدحرجها عن قمة تلك العظمة الشاهقة ؟ لقد قال بهذا علماء كثيرون كما قال آخرون مثل هذه المقالة في الاسلام ، وكلا الفريقين جائر حائد عن الصواب .

فان لسقوط الرومان بعد فشو الدين المسيحي فيهم ولسقوط اليونان من قبلهم بعد ان تقبلوا دعوة بولس الى النصرانية اسباباً وعوامل كثيرة من فساد الاخلاق ، وانحطاط الهمم ، وانتشار الخنى والخلاعة ، وشيوع الالحاد

والاباحة ، ومن هرم الدول الذي يتكلم عنه ابن خلدون ، وغير ذلك من أسباب السقوط الداخلية منضمة اليها غارات البرابرة من الخارج ، فكانت ثمة أسباب قاسرة مؤدية الى السقوط الذي كان لا بد منه ، فلو فرضنا ان النصرانية لم تكن جاءت وقتئذ لم يكن الرومان ولا اليونان نجوا من عواقب تلك الحوادث ولا تخطتهم نتائج تلك الاسباب .

فدعوى بعض المؤرخين الاوروبيين ان تغلب المسيحية على اليونان والرومان أخنى على عظمتها ، وذهب بمدنيتها ليس فيه من الصحيح إلا كون الاوضاع الجديدة تذهب بالاوضاع القديمة ، سنة الله في خلقه وأنه في هيمنة هذا التحول لا بد من اضطراب الاحوال وانحلال القواعد واستحكام الفوضى ، وإلا فلا أحد يقدر أن يقول : ان الوثنية أصلح للعمران من النصرانية [1] . .

وهذه الدعوى كادت تكون أشبه بدعوى اعداء الاسلام الذين يزعمون

---

(١) علماء المسلمين يعتقدون ان النصرانية على ما طرأ عليها من الوثنية بالتثليث الوثني القديم أصلح لأنفس البشر من الوثنية الخالصة ولكنها ليست اصلح ولا أقبل للعمران المدني الذي تتنافس فيه اوروبة وغيرها لانها ديانة مبنية على المبالغة في الزهد والخضوع لكل حكم دنيوي ، والعمران لا يتم ولا يسمو الا بالسيادة والملك والغنى ، ومن قواعد الانجيل ان الجمل إذا دخل في ثقب الإبرة فالغني لا يدخل ملكوت السموات ، ونعتقد ايضاً ان جميع ما جاء به المسيح عليه السلام من الدين فهو حق وكان البشر في اشد الحاجة الى ما فيه من المبالغة في الزهد والتواضع لمقاومة ما كان عليه اليهود وحكامهم الروم (الرومان) من الطمع والكبرياء والعتو وان هذا كان تمهيداً للاسلام الدين الوسط المعتدل الجامع بين مصالح الدنيا والآخرة فما ذكرناه من اعتقادنا يتضمن اعترافنا بحقية دين المسيح في نفسه وبكونه من عند الله تعالى مع التعارض بينه وبين ديننا الناسخ له .

ومن وظيفتي ان أبين هذا في حاشية مقال كتب للمنار باقتراح من احد تلاميذ المنار على أمير البيان (ر) .

ان الشرق كان راتعاً في بحـــابح العمران ، فجاء الاسلام وطمس المدنيات الشرقية القديمة ! لولا ان الحقيقة هي كما قدمنا ان المدنيات الشرقية كانت كلها قد انقرضت أو انحطت قبل ظهور الإسلام بكثير ، وان الإسلام وحـده لا غيره هو الذي جـــدد مدنية الشرق الدارسة ، واستأنف صولتـه الذاهبة الطامسة ، وبعث تلـــك الحواضر العظمى الزاخرة بالبشر كبغداد والبصرة وسمرقند وبخارى ودمشق والقاهرة والقيروان وقرطبة وهلم جراً، فان كانت قد بقيت للشرق آثار مدنيات قديمة فان الاسلام هو الذى وطد بوانيهـــا ، وطرز حواشيها ، وحمل السيف بيد والقلم بيد الى أبعد ما تصوره العقل من حدود الاقطار التي لم يسبق لشرقي ان يطأها بقدمه .

فاذا كان الافرنج الصليبيون من الغرب ، وكان المغول أولئـــك الجراد المنتشر من الشرق ، قد دمروا مـــا بنى الإسلام في تلك الممالك ، ونسفوا عمران هاتيك الحواضر ، وكانت منافسات ملوك الإسلام الداخلية للشهوات ، وامعانهم في الضلالات ، وحيدهم عن جادة القرآن القويمة ، وفقدهم ما يزرعه في الصدور من الاخلاق العظيمة ، وقد قضت في الداخل ، على مـا عجز عن تعفيته العدو من الخارج ، فليس الذي في هـذا التقلص ذنب الإسلام ، ولا التبعة في هذا الانقلاب عائدة على القرآن ، وإنمـا الذنب هو ذنب الهمج من الافرنج ، وجناية ذلك الجراد الزحاف من المغول ، وإنمـا هي تبعة المسلمين الذين رغبوا عن أوامر كتابهم واشتروا بآياته ثمناً قليلاً ، إلا النادر منهم .

وايضاً فقـد تنصرت الأمم الأوروبية في القرن الثالث والرابع والخامس والسادس من ميلاد المسيح ، وبقيت أمم في شرقي أوروبة الى القرن العاشر حتى تنصرت ولم تنهض اوروبة نهضتها الحالية التي مكنتها تدريجاً من هذه السيادة العظمى بقوة العـــلم والفن إلا من نحو اربعمائة سنة أي من بعد ان دانت بالانجيل بألف سنة ، ومنهـــا بعد ان دانت به بسبعماية سنة ومنها بثمانمائة سنة ، الخ ..

وهـذه هي القرون المسماة في التـاريخ بالقرون الوسطى ولا نقول ان الاوروبيين كانوا في هذه القرون بأجمعهم هائمين في ظلمات بعضها فوق بعض ، بل نقول ان العرب كانوا أعلى كعباً منهم بكثير في المدنية باقرار مؤرخيهم ، وبرغم أنف لويس برتران واضرابه .

ومن الكتب المخرجة حديثاً الشاهدة بذلك التاريخ العام للكاتب الفيلسوف الانكليزي « ولز » و « تاريخ مدنيـات الشرق » لمؤلف افرنسي متخصص في التواريخ الشرقية اسمه « غروسه » فالحقيقة التاريخية المجمع عليهـا هي واحدة في هذا الموضوع لم يظهر مـا ينقضها ولن يظهر ، وهي : ان العرب في القرون الوسطى كانوا اساتيذ الاوروبيين ، وكان الواحد من هـؤلاء إذا تخرج على العرب تباهى بذلك بين قومه .

سبب تأخر أوروبا الماضي ونهضتها الحاضرة :

أفنجعل هذا التأخر الذي كان عليه الأوروبيون في القرون الوسطى مدة الف سنة ناشئاً عن النصرانيـة التي كانت دينهم الذي يعضون عليـه بالنواجذ ؟

نعم ان الأمم البروتستانتية منهم تجعل مصدر هذا التأخر الكنيسة البابوية لا النصرانية من حيث هي . وتزعم ان نهضة أوروبة لم تبـدأ إلا بخروج (لوثير ، وكلفين) على الكنيسة الرومانية .

وأما فولتير ومن في حزبه من أقطاب الملاحـة فلا يفرقون كثيراً بين الكاثوليك والبروتستانت ، وعندهم ان جميع هذه العقائد واحدة وانها عائقة عن العلم والرقي ، ولهذا قال فولتير تلك الكلمة عندما ذكر لديه لوثير ، وكلفين ، قال :

« كلاهما لا يصلح ان يكون حذاء لمحمد [1] » يرى ان محمد ﷺ بلغ من الاصلاح ما لم يبلغا ادناه ، مع اعتقاد الكثير ان مذهبها كان فجر أنوار أوروبا [2] .

وألحق الذي لا يرتاب فيه أن النصرانية نفسها لم تكن هي المسؤولة عن جهالة الافرنج المسيحيين مدة الف سنة في القرون الوسطى بل للمسيحية الفضل في تهذيب برابرة أوروبا .

وهؤلاء اليابانيون هم وثنيون، ومنهم من هم على مذهب بوذا، ومنهم من يقال لهم طاويون، وكثيرون منهم يتبعون الحكيم الصيني كنفوشيوس. ولقد مضى عليهم نحو الفي سنة ولم تكن لهم هذه المدنية الباهرة ولا هذه القوة والمكانة بين الأمم . ثم نهض اليابان من نحو ستين سنة وترقوا وعزوا وغلظ أمرهم ، وعلا قدرهم وصاروا الى ما صاروا اليه ولم يبرحوا وثنيين .

فلا كانت الوثنية إذاً سبب تأخرهم الماضي ولا هي سبب تقدمهم الحاضر، وقد تقاوت اليابان والروسيا وتحاربتا فتغلبت اليابان على روسيا مع ان

---

(١) ذكر فولتير هذه الجملة أمام البرنس سيندورف النمسوي الذي صار فيما بعد وثيقاً لوزراء سلطنة النمسة وعندما دخل بونابرت فيينا كان هذا البرنس هو رئيس الحكومة فيها وكان نقل هذه الجملة عن فولتير في أيام شبابه عندما اجتمع به في سويسرة فقيدها في مذكراته المحفوظة في خزانة كتب فيينا وعنها نقلتها جريدة الطان ونحن نقلناها عنها (ش) .

(٢) ونحن نعتقد هذا وكان شيخنا الاستاذ الامام واذكياء مريديه كسعد باشا زغلول يعتقدونه ولكن بمعنى سلبي وهو ان هذا المذهب اضعف حجر الكنيسة على العقول البشرية وتقييدها بتعاليمها وفهمها للدين ورأيها في الدنيا ، وكان سبب هذا المذهب ما سرى الى اوروبة عقب الحروب الصليبية بمعاشرة المسلمين من استقلال العقل في فهم الدين وعدم سيطرة أحد عليهم فيه كما بينه شيخنا في كتاب الاسلام والنصرانية (ر) .

اليابانيين في العدد هم نصف الروس ، ولكن ممـــا لا شك فيه ان اليابانيين أرقى من الروس ، والحال ان روسية عريقـة في النصرانية واليابان عريقة في الوثنية .

فليترك إذاً بعض الناس جعل الاديان هي المعيار للتأخر والتقدم [1] .

أفنقول من اجل هذا المثال : إن الانجيـــل هو الذي أخّر روسيا عن درجة اليابان ، وان عبـادة الآلهة ابنة الشمس هي التي جذبت بضبع اليابان حتى سبقت روسيا ؟

إن لهذه الحوادث اسباباً وعوامـل متراكمة ترجع الى أصول شتى ، فاذا تراكمت هذه العوامل في خـــير أو شر تغلبت على تأثير الأديان والعقـائد واصبحت فضائل اقوم الأديان عاجزة بازاء شرهـــا ، كما اصبحت معايب أسخفها غير مؤثرة في جانب خيرها .

ولسنا هنا في صدد أسباب تقدم اليـــابان السريع حتى نبين ان اعتقاد عامتهم (وجود حصان مقدس يركبه الإله فلان) لم يقف حائلاً دون تقدمهم المبني على ما ركب في فطرتهم من الحماسة ، وما أوتو من الذكاء ، وما أورثهم نظام الاقطاع القديم من التنافس في المجد والقوة .

وعندنا أمثلة كثيرة تكاد لا تحصى في هذا الباب اجتزأنا منها بما ذكرناه . ولم نكن لنتعرض لهذا المقـــام لولا حملات القسوس والمبشرين وكثير من الأوروبيين على الاسلام ، وزعمهم انه عنوان التأخر ، وانه رمز الجمود ،

---

(١) هذا صحيح في جملة الأديان إلا الاسلام فقرآنه وتاريخه يثبتان انـه هو سبب تقدم أهله حين اهتدوا به وسبب تأخرهم حين اعرضوا عنه ، كما بين هذا أمير الكتاب في رسالته هذه فأظلم الظلم ان يجعل سبب تأخيرهم (ر) .

وتحدثهم بذلك في الأندية والجامع ونشرهم هذه الافتراءات في المجلات والجرائد ، وقولهم ان الشجرة تعرف من ثمارها وان حالة العالم الإسلامي الحاضرة هي نتيجة جمود الإسلام ، وتحجر القرآن .

كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً[1] .

وحسبك ان المسيو سان (المقيم الافرنسي السامي) في المغرب ينشر في العدد الأخير من (مجلة الأحياء) الافرنسية مقالة يتكلم فيها على يقظة المغرب بعد (ليل الإسلام) ! هكذا تعبيره .

فان كان تأخر إحدى الممالك الإسلامية حقبة من الدهر يجب أن يقال فيه (ليل الاسلام) فكم كان ليل النصرانية طويلاً عندما بقيت أوروبة المسيحية زهاء الف سنة وهي في حالة الهمجية او ما يقرب من الهمجية .

إن إدخال الأديان في هذا المعترك وجعلها هي وحدها معيار الترقي والتردي ليس من النصفة في شيء . اما الاسلام فلا جدال في كونه هو سبب نهضة العرب وفتوحاتهم المدهشة مما اجمع على الاعتراف به المؤرخون شرقاً وغرباً ولكنه لم يكن سبب انحطاطهم فيما بعد كما يزعم المفترون الذين لا غرض لهم سوى نشر الثقافة الاوروبية بين المسلمين دون ثقافة الإسلام وبسط سيادة أوروبة على بلدانهم بل كان السبب في تردي المسلمين هو انهم اكتفوا في آخر الأمر من الإسلام بمجرد الإسم والحال ان الإسلام اسم وفعل .

---

(١) الكهف : من الاية ٥ .

حث القرآن على العلم

(باعث للمسلمين على سبق الأمم في الرقي)

العالم الإسلامي يمكنه النهوض والرقي واللحاق بالأمم العزيزة الغالبة إذا أراد ذلك المسلمون ووطنوا أنفسهم عليه ، ولا يزيدهم الإسلام إلا بصيرة فيه وعزماً ، ولن يجدوا لأنفسهم حافزاً على العلم والفن خيراً من القرآن الذي فيه :

هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١) .

والذي فيه :

وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ (٢) .

---

(١) الزمر : ٩ .

(٢) البقرة : من الاية ٢٤٧ .

والذي فيه :

وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ ٱللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ [1] .

والذي فيه :

شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ وَٱلْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا ٱلْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ [2] .

والذي فيه :

بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ [3] .

والذي فيه :

يَرْفَعُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ [4] .

---

(١) آل عمران : من الآية ٧ .

(٢) آل عمران : من الاية ١٨ .

(٣) العنكبوت : من الاية ٤٩ .

(٤) المجادلة : من الاية ١١ .

والذي فيه :

وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ [1] .

وفيه :

يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً [2] .

وفيه :

فَقَدْ آتَيْنَا آلَ ابْرَاهِيمَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُلْكاً عَظِيماً [3] .

وغير ذلك من الآيات الكريمة ، وفيه ما هو خاص بالأمة العربية .

هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ [4] .

---

(١) البقرة : من الآية ١٢٩ ، وآل عمران : من الاية ١٦٤ ، والجمعة : من الاية ٢ .

(٢) البقرة ٢٦٩ .

(٣) النساء : من الاية ٥٣ ،

(٤) الجمعة : ٢ .

وقد زعم بعضهم ومن جملتهم (سيكار) هذا الذي بالمغرب قد ألف كتاباً في الطعن على الإسلام ، وهو الذي يكتب في مجلة « مراكش الكاثوليكية » أن المراد بلفظة « العلم » في القرآن هو العلم الديني ولم يكن المقصود به العلم مطلقاً لنستظهر به على قضية تعظيم القرآن للعلم وإيجابه للتعليم .

وقد أتى سيكار من المغالطة في هذا الباب ما لا يستحق أن يرد عليه لما فيه من المكابرة في المحسوس . وكل من تأمل مواقع هذه الآيات المتعلقة بالعلم وبالحكمة وغيرها مما يحث على السير في الأرض والنظر والتفكر يعلم أن المراد هنا بالعلم هو العلم على اطلاقه متناولاً كل شيء ، وان المراد بالحكمة هي الحكمة العليا المعروفة عند الناس ، وهي غير الآيات المنزلة والكتاب كما يدل عليه العطف وهو يقتضي المغايرة . ويعزز ذلك الحديث النبوي المشهور : « اطلبوا العلم ولو في الصين »[1] .

فلو كان المراد بالعلم هو العلم الديني كما زعم سيكار ما كان النبي ﷺ يحث على طلبه ولو في الصين اذ أهل الصين وثنيون لا يجعلهم النبي مرجعاً للعلم الديني كما لا يخفى .

وفي بعض الآيات من القرائن اللفظية والمعنوية ما يقتضي ان المراد بالعلم علم الكون لأنه في سياق آيات الخلق والتكوين وهي في القرآن أضعاف الآيات في العبادات العملية كالصلاة والصيام كقوله تعالى :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ

---

(١) تتمته « فان طلب العلم فريضة على كل مسلم » رواه العقيلي وابن عدي والبيهقي وابن عبد البر عن أنس وفيه عند الأخير زيادة أخرى في فضل العلم وله طرق يقوي بعضها بعضاً (د) .

مُخْتَلِفاً أَلْوَانُها ، وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَابِّ وَٱلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ، إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ (١) .

أي العلماء بما ذكر في الآية من الماء والنبات والجبال وسائر المواليد المختلفة الألوان وما فيها من أسرار الخلق لا العلماء بالصلاة والصيام والقيام .

وقد كنا ظننا هذا الرجل على شيء من حب الحقيقة ، فلما أنكر المدنية الاسلامية رددنا عليه في المنار وجادلناه بالتي هي أحسن ، وعظمنا من قدر المدنية المسيحية ، ووقرنا منها ورددنا على القائلين من الأوروبيين بأن النصرانية كانت وقفاً لسير المدنية وسبباً لسقوط اليونان والرومان إلى غير ذلك .

فكان من سيكار هذا ان نشر سلسلة مقالات تتضمن من الطعن على الاسلام منا لو جئنا نرده لم نستغن عن إيراد شبه واعتراضات تتعلق بالدين المسيحي مما نأبى ان نتعرض له لأنه ليس من العدل ولا من الكياسة ولا من حسن الذوق ان نغيظ إخواننا المسيحيين من أجل رجل اسمه سيكار او غيره من هذه الطبقة من الدعاة والمبشرين ، هذا رائداً الى ما رأيناه في كلامه من الخلط والخبط والمغالطة التي من قبيل قوله : إن العلم المقصود في القرآن ليس هو العلم المعروف عند الناس بمفهومه المطلق ، وإنما هو العلم الديني فقط لأن القرآن لا يهمه شيء من علوم الدنيا ! فمكابر كهذا لا يستحق الجواب.

ثم علمنا ان المسيو سيكار هذا هو من مستخدمي فرنسة في الرباط بادارة الأمور الاسلامية وأنه هو والمسيو لويس برينو مدير التعليم الاسلامي هناك —

---

(١) فاطر : الايتان ٢٧ و ٢٨ .

والقومندان ماركو مدير قلم المراقبة على الجرائد والمطبوعات – والقومندان مارتي مستشار العدلية الاسلامية – ورهطٌ آخرون هم الذين لعبوا الدور الأهم في قضية العمل لتنصير البربر .

وما كان استخدام فرنسة لهم في مهمات كلها عائدة للاسلام إلا على نية نقض كل ما يقدرون عليه من بنـاء الاسلام بالمغرب . وستذوق فرنسا ولو بعد حين وبال ما عملته وتعمله من التعرض للدين الاسلامي الذي تعهدت في معاهداتها باحترامه .

إنا لا نريد لفرنسا إلا خيراً ولكننا ننصح لها بالعدول عن هذه السياسة التي هي على خط مستقيم ضد المبادىء التي تعلنها عن نفسها من أن الأديان في نظرها على حد سواء؟ فان كانت الأديان عند الدولة الافرنسية على حد سواء فلماذا هذا الاجتهاد في تنصير البربر وهم مسلمون؟ ولماذا هذه المساعي الحثيثة في تنصير العلويين سكان جبال اللاذقية وفي فصلهم عن الوحدة السورية والحال أن العلويين هم فرقة من الفرق الاسلامية كما لا يخفى. وكذلك ننصح الانكليز بالعدول عن دعـايتهم الدينية في السودان والأوغاندة وننصح لهولاندة بترك دعايتها الدينية بين مسلمي اندونيسيا .

كلمة لطلاب النهضة القومية دون الدينية :

يقول بعض الناس [1] ما لنا وللرجوع الى القرآن في ابتعاث همم المسلمين الى التعليم فان النهضة لا ينبغي ان تكون دينية بل وطنية قومية كما هي نهضة أهل أوروبة ، ونجيبهم ان المقصود هو النهضة سواء كانت وطنيـة أم دينية [2] على شرط ان تتوطن بها النفوس على الحب في حلبة العلم، ولكننا

---

(١) أي من ملاحدة المسلمين الجاهلين او المتجاهلين لحال اوروبا في عصبيتها الدينية (ر).

(٢) ولكن السؤول عنه هو نهضة المسلمين من حيث هم مسلمون .

نخشى إن جردناها من دعوة القرآن أن تفضي بنـــا الى الالحاد والاباحة وعبـادة الأبدان واتباع الشهوات ، مما ضرره يفوت نفعه ، فلا بد لنـا من تربية علمية سائرة جنباً الى جنب مع تربية دينية ، وهل يظن الناس عندنا في الشرق ان نهضة من نهضات أوروبا جرت دون تربيـة دينية ؟ وهـل جرت نهضة اليابان دون تربية دينية ؟

أفلم يقل رئيس نظار ألمانيا في الرايستاغ منذ ثلاث سنوات : ان ثقافتنا مبنية على الدين المسيحي؟ وهذا هو اعلان المانيا التي هي المثل الأعلى في العلم والصناعة واتقان الآلات والأدوات، لا ينازع في ذلك أحد ، ولا أعداؤها.

أفتوجد جامعة في ألمانيا أو انكلترا أو غيرهما من هذه الممالك الراقية من دون ان يكون فيها علم اللاهوت المسيحي ؟ (١)

ثم انهم عندما يقولون : في اوروبا (نهضة وطنية) أو (نهضه قومية) أو جامعة وطنية أو قومية ، لا يكون مرادهم بالوطن التراب والماء والشجر والحجر ، ولا بالقوم السلالة التي تنحدر كلها من دم واحد ، وإنمـــا الوطن والقوم عندهم لفظتان تدلان على وطن وأمة بمـــا فيهما من جغرافية وتاريخ وثقافة وحرث وعقيدة ودين وخلق وعادة مجموعـاً ذلك معـاً ، وهذا الذي يناضلون عنه ويستبسلون كل هذا الاستبسال من أجله .

---

(١) وهذا بعد التربية المنزلية الدينية المحضة والتربية المدرسية الابتدائية وجلها دينية (ر).

أسباب انحطاط المسلمين
في العصر الأخير

من أعظم أسباب انحطاط المسلمين في العصر الأخير فقدهم كل ثقة بأنفسهم وهو من أشد الامراض الاجتماعيـة وأخبث الآفـات الروحية لا يتسلط هذا الداء على إنسان إلا أودى به ولا على أمة إلا ساقهـا الى الفناء وكيف يرجو الشفاء ، عليل يعتقد بحق أو بباطل ان علته قاتلته ؟ وقد أجمـع الأطباء في الامراض البدنية ان القوة المعنوية هي رأس الادوية وان من اعظم عوامـل الشفاء إرادة الشفاء فكيف يصلح المجتمع الاسلامي ومعظم أهله يعتقدون انهم لا يصلحون لشيء ولا يمكن ان يصلح على أيديهم شيء،وانهم إن اجتهدوا أو قعدوا فهم لا يقدرون ان يضارعوا الأوروبيين في شيء .

وكيف يمكنهم ان يناهضوا الاوروبيين في معترك وهم موقنون ان الطائفة الأخيرة ستكون للأوروبيين لا محـالة ؟ فصار مثلهم مع هؤلاء مثـل اولئك الاقران الذين كان يبطش بهم سيدنا علي رضي الله عنه في وقائعـه فقد حدثوا انه سمعت له في صفين اربعمائة تكبيرة وكان من عادتـه كرّم الله وجهه انـه يكبّر كلما صرع قرناً ، فقيل له في ذلـك فأجاب :

كنت إذا حملت على الفارس ظننت أني قاتله فكنت انا ونفسه عليه .

وهكذا اصبح المسلمون في الاعصر الاخيرة يعتقدون انه مـا من صراع بين المسلم والاوروبي إلا سينتهي بصرع المسلم ولو طال كفاحه . وقر ذلك في نفوسهم وتخمّر في رؤوسهم لا سيما هذه الطبقة التي تزعم انها الطبقة المفكرة العاقلة المولعة بالحقائق الصادفة عن الخيالات بزعمها فانهـا صارت تقرر هـذه القاعدة المشؤومة في كل نادٍ وتجعل التشاؤم المستمر والنعاب الدائم من دلائل العقل وسعة الادراك وتحسب اليأس من صلاح حال المسلمين من مقتضيات العلم والحكمة وما زالت تنفخ في بوق التثبيط وتبث في سواد الأمـة دعـاية العجز الى ان صار الاستخذاء ديدن الجميع الا من رحم بك وكانت روحه من اصل فطرتها قوية عزيزة .

ولم تقتصر هـذه الفئـة على القول بأن حـالة المسلمين الحاضرة هي متردية متدنية لا تقاس بحالة الافرنج في قليـــل ولا كثير بل زعمت ان التعب في مجـاراة المسلمين للافرنج في علم او صناعة او كسب او تجـارة او زراعة او حرب او سلم او اي منحى من مناحي العمران هو ضرب من المحـال وشغل بالعبث لا يليق بالعاقل اتيانه ، وكأن المسلمين من طينة والافرنج من طينة اخرى فعلوّ الافرنج على المسلمين أمر لا بد منه وكأنه كتب في اللوح المحفوظ وجفّ به القلم ولم يبق امام المسلمين الا ان يعلموا كونهم طبقة منحطة عن طبقة الافرنجة ويعملوا بمقتضى هذه العقيدة .

وكثيراً ما وقعت لي مجادلات مع هؤلاء المفلسفين بالفـارغ صغار النفوس ولم يكن يدخـل في عقولهم المنطق ولا يعظهم التـاريخ ولا ينفع في اقناعهم علم الطبيعة ولا التشريح ولا يحيـك بهم استنتاج ولا قياس وذلك لما غلب عليهم من آفة الذل ومرض الاستخذاء وقد احس الاوروبيون بما عند المسلمين من هذه الحـالة الروحية الموافقة لمصالحهم الاستعمارية فصاروا يروجونها فيهم ويقوون عندهم هذه العقيدة فانطبق على هؤلاء الناعقين بالبين الآية الشريفة :

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً [1] .

ولم يكن الافرنجة وسعاتهم ودعاتهم بملومين على ترويج هذه النظريات التاعسة بين المسلمين لأنها مما يسهّل الاستعمار ويمهّد طرقه ويكفيهم المقاتلات والمنازلات ويوفر عليهم المزاحمات والسابقات ويجعل لهم التفوّق بلا نزاع والتسلّط دون جدال ولكن العجب كل العجب من هؤلاء المسلمين الذين أمرهم الله ليتصفوا بالعزة ويتسموا بالانفة ويستوفوا تمام الرجولة كيف كانوا ينقادون لهذه الاضاليل التي مآلها عبوديتهم للأجانب . لقد صدق فيهم كلام الله تعالى :

وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ [2] .

واكثر ما كانوا يؤكدونه للناس من عدم قابلية المسلمين هو استحالة قيامهم بالمشروعات العمرانية والأعمال المادية وكل ما يتعلق به حساب ورقم او مساحة وقياس فإذا قلت لهم : إن كان المسلمون لا يحسنون هذه العلوم كما تزعمون فكيف استطاعوا ان يؤثروا هذه الآثار الباهرة التي يؤمها السياح من اقاصي الدنيا وكيف ملأوا مصر والشام والعراق والمغرب وايران والهند والقسطنطينية وغيرها مباني ومؤسسات تبهر الأبصار وتحير الأفكار وكانت لهم معامل ومناسج ودور صناعات متنوعة وغير ذلك مما يعد في الصناعة من الطراز الأول اجابوك :

قد كان هذا قبل ان يرقى الافرنج هذا الرقي الحديث وقبل ان يكشفوا

---

(١) البقرة : من الاية ١٠ .

(٢) التوبة : من الاية ٤٨ .

اسرار الكون التي كشفوها وغير ذلك مما ليس يجواب عن هذا الخطاب والموضوع هو في واد وهذا في واد .

فنحن نريد ان نقول ان كل من سار على الدرب وصل وان المسلمين إذا تعلموا العلوم العصرية استطاعوا ان يعملوا الأعمال العمرانية التي يقوم بها الافرنج وانه ليس هناك فرق في القابلية البشرية ولكن على شرط ان ينفض المسلمون عن أنفسهم غبار الخمول ويلغوا هذه القاعدة التي قد كانت من أسباب شقائهم زمناً طويلاً وهي ان كل عمل عمراني في الشرق لا بد من ان يستعار له شركة أوروبية لتقوم به والا فلا يستطاع عمله . ولقد أتت التجارب بعد ذلك بما يثبت فساد هذه النظرية بتمامها وتمكن المسلمون في كثير من البلاد من انشاء شركات صناعية وتجارية وتأسيس معامل ومناسج ودور صناعة نجحت نجاحاً باهراً كذب مزاعم تلك الفئة المثبطة وصيّرها موضوعاً للهزء .

ولما عزم السلطان عبد الحميد الثاني العثماني على مد سكة حديدية من دمشق الى الحرمين الشريفين قوبل هذا المشروع أوانئذ بمزيد الاستغراب تبعاً للعادة ومن الناس من ضحكو به وقالوا :

نحن نرى انفسنا عاجزين عن انشاء طريق عجلات فكيف نستطيع ان ننشىء سكة حديدية طولها يزيد عن الفي كيلومتر وأنّى لنا المال والعلم اللازمان لمشروع عظيم كهذا ؟ واغرب من تشاؤم المسلمين وشعورهم بالعجز عن القيام بهذا العمل ان المهندس الالماني الكبير مايستر باشا الذي انتدبه السلطان لرئاسة مهندسي هذا الخط هو نفسه كان لا يعتقد امكان انشاء هذا الخط وكان هذا الرجل صديقي فسألته مرة عن رأيه فيه فقال لي انه يرجو ايصاله الى معان وهي مسافة اربعمائة كيلومتر من دمشق فأما مده من معان الى المدينة فيكاد يكون من المستحيل فسألته هل ذلك من عدم وجود المال ؟

قال : على فرض وجد المـال فان دون انشاء الخط موانع طبيعية يتعذر التغلب عليها فان السكة يلزم لها ماء في كل محطة والماء لا يوجد إلا في محطات معدودة وان انشأنا صهاريج تملأ بمـاء المطر لم يؤمن ان الحرارة في الصيف تنشف بشدتها مياه الصهاريج وهناك صعوبة أخرى وهي ان الخط سيمتد في أمكنة كلها رمال وقد تهب الرياح السافياء فتأتي برمال تغطي الخط ولا يمكن منع ذلك إلا بزرع الحلفاء والقصب والطرفاء وكل هذا يلزمه مـاء حتى ينمو وابن الماء من تلك الأراضي ؟ هـــذا كان كلام المهندس الكبير لي من جهة الطبيعة . ثم ذكر الخطر الواقع على الخط من اعراب البادية .

فأما أنا فكنت معتقداً خلاف اعتقاد الآخرين قائلاً بأن ليس ثمة صعوبات لا يستطاع تذليلها وكنت من الذين ينددون بالمتشائمين والمتهكين ونظمت في هذا المشروع قصيدة احث بها الأمة على التبرع لأجله وتبرعت انا من جيبي بخمسة عشر جنيهاً وذكرت مـــا سيكون لهذا الخط من الفوائد العمرانية والاقتصادية والعسكرية فضـلاً عن تسهيل الحج الذي هو هدفه الأسمى وكان مطلع قصيدتي :

أَلَا يَا بَنِي الإِسْلَامِ هَلْ مِنْ مُسَاعِد

لِفِعـــل سَمَاوِيّ المثوبة مَاجِـــد

فلما طبعتُ القصيدة ونشرتها سلقني الكثيرون من أولئك الغربان بألسنة حداد وكأني كفرت في تنويهي بمشروع يربط الشام بالحجاز ويختصر المسافة بينهما على الحجاج من ٤٠ يوماً الى أربعة أيام وهزأوا ما شاؤوا وتمنطقوا بقدر ما أرادوا . ولكن كل تلك الفلسفة لم تجدهم فتيـلا ونجز الخط الحديدي من دمشق الى المدينـــة المنورة وهي مسافة الف واربعمائة كيلومتر ولولا خلع

السلطان عبد الحميد لكان قد تم الى البلد الحرام، ولكن من بعده فترت الهمة بإكماله وجاءت الحرب وعواقبها فقضت بإهماله .

ثم ان هذا الخط جاء من أبدع الخطوط الحديدية في العالم ، صادفت مرة فيه أحد كبراء مسلمي الهند من أعضاء مجلسها الأعلى وهو ممن تثقفوا ثقافة انكليزية محضة وتخرج من جامعة اكسفورد فقال لي : لا يوجد في نفس انكلترة سكة حديدية تضاهي في الاتقان هذه السكة ولو لم أشاهدها بعيوني ما صدقت بوجودها . وبالفعل لم يصدق كثير من المسلمين اخبارها فأرسلوا وفوداً يشاهدونها بأعينهم ، فكان المسافر يصل من دمشق الى المدينة في ليلتين وكانت دمشق تستفيد كل سنة من هذا الخط ما يقارب ٢٠٠ الف جنيه وعمرت القرى التي مر بها الخط وارتفعت أثمان الأراضي ارتفاعاً مدهشاً وتضاعف عمران المدينة المنورة اضعافاً ، هذا فضلاً عما توفر من المشاق والاخطار على الحجاج والزائرين والتجار والمسافرين .

واما الصعوبات الطبيعية التي كانوا يقدرونها فلم يصح منها شيء واما الاعراب فلم يقع منهم على الخط ادنى اعتداء . وكان عند كل محطة من محاط الخط قلعة فيها جند للمحافظة وكل تلك المحطات والقلاع كانت مبنية امتن بناء . ولما كان لا يتاح لغير المسلمين دخول ارض الحجاز فكان انشاء الخط اي القسم الداخل منه في الحجاز كله على أيدي مهندسين مسلمين حتى ان مايستر باشا الالماني نفسه لم يتجاوز في اشرافه بلدة تبوك .

ولما ذهبت الى المدينة المنورة زائراً النبي ﷺ وذلك سنة ١٣٣٠ هـ . كنت اسمع ان عدم مد الخط الحديدي من المدينة الى مكة نشأ عن اعتراض قبائل العرب من حرب وغيرها وانهم لا يسمحون بمرور الخط في أراضيهم ففحصت عن هذه القضية فوجدت اكثرها هراءً وافتراءً ، وسألت شيوخ القبائل عما يقال من معارضتهم في انشاء السكة فقالوا :

لو كنا معارضين لانشائها لعارضنا ذلك من أول دخولها في أرض الحجاز، والحال اننا كنا مساعدين للحكومة على هذا المشروع بكل قوانا ، فسألتهم التوقيع على عريضة للدولة يطلبون فيها تمديد هذا الخط من المدينة الى مكة، فوقع عليها جم من أولئك المشايخ ، ولم تكن الدولة عهدت إليّ بهذه المهمة وإنما قمت بها خدمة للوطن وللملة .

ولولا طروء الحرب العامة بعد ذلك بقليل لكان بوشر بمد الخط الحديدي من المدينة الى مكة . فلما انتهت الحرب العامة واحتلت انكلترة فلسطين وفرنسا سوريا كان أول ما توجهت اليه همم الانكليز والفرنسيس هو تعطيل هذا الخط الحديدي الذي يربط القطر الشامي بجزيرة العرب ويقرب صلات المسلمين بعضهم ببعض .

وكم احتج المسلمون على تعطيل هاتين الدولتين لهذا الخط الحيوي للشام والحجاز وكم أبدوا وأعادوا في ان هذه السكة الحديدية الحجازية كانت تركيا قد جعلتها من جملة أوقاف المسلمين فلا يحق لدولة أجنبية ان تعبث بأوقافهم فلم يكن ذلك ليقنع تينك الدولتين بالاعتدال ورفع الاعتداء ولا تزال هذه المؤامرة الفظيعة على هذا الحق المقدس من حقوق المسلمين نافذة الى يوم الناس هذا . فإذا قام شخص مثلنا يذكرهم بهذا الاعتداء القبيح ضاقت صدورهم به ودسّ عليه الانكليز في السر وطعن عليه الفرنسيس في الجهر ونعتوه « بعدو فرنسا » وما أشبه ذلك .

والحال اننا إنما نريد صلاح احوال بلادنا ولا نضمر لأحد سوءاً. والشاهد الذي نقصده هنا هو ما سبق انشاء سكة الحجاز من تشاؤم كثير من المسلمين واستهزائهم واستنكارهم وتأكيد انه خط محال انشاؤه ومشروع يكون من قلة العقل تعليق الأمل به . وهذا مثال من أمثلة كثيرة لا يمكن استقصاؤها من كثرتها فقلّما تدخل بلداً من بلدان الاسلام ولا يوردون لك من هذه الأمثال .

وكما ظن المسلمون انهم لا يحسنون شيئاً من المشروعات العمرانية وانه لا بد لهم من الاوروبي حتى يدخلوا الاصلاح في بلادهم وانه من دون الافرنجي لا يقدرون على أية عمارة ولا مرفق ذي بال ، كذلك ذهبوا الى انه لا حظ لهم في الأعمال الاقتصادية أصلاً وان كل مشروع اقتصادي إسلامي صائر الى الحبوط إن لم تكن له أركان افرنجية وقد طال نومهم على هذه العقيدة الفاسدة حتى لم يبق في بلادهم شيء اسمه اقتصاد إلا كانت إدارته بأيدي الافرنج أو اليهود وحتى لو دعا منهم داع الى تأليف شركة تجارية أو صناعية أو زراعية لم يدخلها صاحب رأس مال من المسلمين إلا إذا كانت إدارتها بيد افرنجي أو يهودي . وكلمة الجميع عندهم : نحن لا يخرج من أيدينا عمل ولا نصلح لشيء .

وقد بقي اليهود والافرنجة يتمتعون بخيرات بلاد الإسلام قروناً وحقباً طوالاً دون مزاحم ولا مراغِم ويستدرون فيها أخلاف كل صنعة ويستورون زناد كل مرفق إلا ما ليس له بال حتى ولو قدّر ما ضاع على المسلمين في ظل هذا الوهم بالمليارات وعشرات المليارات ما كانت فيه مبالغة وكأن المسلمين لم يوجدوا في الدنيا إلا عمَلةً أو اكرَة يشتغلون بأيديهم ولا يشتغلون بعقولهم .

وبهذا السبب خلا الميدان في بلاد الإسلام لأصناف الاجانب يركضون فيه جياد قرائحهم وعزائمهم ويجمعون الثروات التي ليس وراءها متطلع لمزيد وذلك على ظهور المسلمين ومن أكياسهم . وقد يكثر التحدث بما يصيب الأجانب من هذه المكاسب الطائلة التي كان أهل الإسلام أولى بها لأنها من بلادهم ولا تحفزهم همة ولا تأخذهم غيرة فيجربوا الخب في الحلبات الاقتصادية الى أن نبغ في مصر محمد طلعت باشا حرب، فكان في هذا الباب أمّة وحده وأدرك بواسع عقله وثاقب فكره ان ليس في هذا الموضوع شيء يفوق طاقة المسلمين ولا مما يتعذر وجود أدواته عندهم وان قصورهم فيه عن مباراة

الاجانب لم يكن إلا من آثار ذلك التوهم القديم الذي هو انهم لا يحسنون الجري في أي ميدان من ميادين الاقتصاد وقد وجدت عند هـذا الرجل في جانب رجاحة العقل وسداد الحكم همة بعيدة قعساء ونزعة وطنية صافية من الاقذاء سالمة من الأهواء فاجتمعت فيه جميع الشروط اللازمة لمن شاء أن يبدأ بالشرق بنهضة اقتصادية تزاحم بالمناكب وثبات الأجانب ومما يندر في الرجال الجمع بين الحساب الدقيق والخيال الواسع وهما قد انتظما جنباً الى جنب في دماغ طلعت باشا حرب فكانت سعة خيـاله مساعدة له على الاقـدام نحو المشروعات التي هي مظان الارباح وكانت دقة حسابه مساعدة له على نجاحها وضمان أرباحهـا . وبالاختصار اقتحم طلعت حرب معركة هي الأولى من نوعها في المجتمع الشرقي .

وعندما باشر جمع رأس المـال الذي كان حدده لانشاء بنك مصر وهو ٨٠ ألف جنيه عانى في ذلك اهوالاً ونحت جبالاً وذلك لما ران على عقول المسلمين من انهم لا يقدرون على الاستقلال بعمل اقتصادي وأن كل عمل منهم في هذا السبيل حابطٌ من نفسه هابطٌ على أم رأسه فلما أخـذ طلعت باشا حرب يتقاضى اغنياءَ مصر المشاطرة في هذا المشروع لبوا نداءه حيـاءً منه لا اعتقاداً بأنه سيأتي بثمرة وبقيت ثقتهم بأجمعها في بنوك الاجانب ، وما زال معولهم عليها الى أن شاهدوا بأعينهم النجاح الذي كاد يكون معجزة في نظرهم وارتفع رأس مال بنـك مصر من ٨٠ ألف جنيه إلى مليون جنيه واحتوت خزائنه من الودائع على عدة ملايين من الجنيهات واشتمل على املاك وسلفات وشركات متعددة متنوعة تقدر بملايين أخرى من الجنيهات بحيث زادت الأموال التي تحت تصرف البنك على عشرين مليون جنيه وكل هذا في ثماني عشرة سنه أنشأ فيها طلعت باشا حرب ومدحت باشا يكن ورفاقهما على حساب بنك مصر شركة مصر للغزل والنسج التي معملها في المحلة هو من أكمل وأعظم معامل الغزل والنسيج في العالم يعمل فيه ١٨ ألف عامل يندر فيهم غير

المصري ويسد من المنسوجات القطنية ثلث حاجة القطر المصري بأجمعه فيكون قد وفر على المملكة المصرية ثلاثة ملايين جنيه سنوياً كانت من قبل تخرج من جيوب المصريين لتدخل في جيوب الاوروبيين .

وهناك من توابع بنك مصر شركة مصر لنسج الحرير وشركة مصر للتمثيل والسينما وكل هذه نالت معروضاتها الجوائز الكبرى في المعرض الدولي الباريزي سنة ١٩٣٧ ثم شركة مصر لصايد الاسماك وشركة مطبعة مصر وشركة مصر للطيران وشركة مصر للسياحة وناهيك بشركة مصر للملاحة البحرية وما انشأته من المنشآت الجواري كالاعلام مثل زمزم والكوثر والنيل وغيرها مما كاد يكون كالاحلام فصار الحجاج يبلغون الحجاز على بواخر يرون بها أنفسهم في مثل قصور الملوك فراهة ورفاهة وراحة ونعيماً ومقاماً كريماً ، وصار سياح مصر الكثيرون الى اوروبا في فصل الصيف يركبون تحت العلم المصري الشريف بواخر لو قرنت ببواخر الامم الاوروبية لحلّت بينها في الصف الأول هذا بعد أن قضينا كل الدهر نسير ونسري في البواخر الاجنبية ونؤدي اليها أموالنا بلا سبب سوى قصور همنا عن انشاء بواخر خاصة بأوطاننا بها ركوبنا وعليها نقل بضائعنا وليس هنا محل تفصيل مشروعات طلعت باشا حرب باعث النهضة الاقتصادية في الشرق لنخوض في هذا العباب ولا مقصدنا تمجيده والاشادة بمآثره ولو بالحقيقة ، وإنما كان ايرادنا هذه القصة على سبيل المثال لما كان عليه المسلمون من الجبن في المواطن الاقتصادية إلى أن هب هذا الرجل مدير بنك مصر فأيقظهم من سباتهم وأعلمهم أنهم رجال كما الاوروبيون رجال وانهم إذا شحذوا غرار عزائمهم وأعملوا أسنّة قرائحهم قدروا على ما يقدر عليه الأجانب من الأعمال الاقتصادية الكبيرة .

وها نحن اولاء الآن نرى العاملين في بنك مصر وفي الشركات المضافة اليه ثلاثين الف مستخدم وعامل كلهم مصريون إلا النادر الأندر ، وهكذا بدأ المسلمون يقتحمون معارك الحياة الاقتصادية في كل فن من فنونها وتولدت

عندهم في أنفسهم ثقة كانت محجوبة عنهم من قبل بحيث ان أحمد حلمي باشا والسيد عبد الحميد شومان من فلسطين أسسا في القدس بنكاً كل رأس ماله خمسة عشر الف جنيه ، وتوفقا بحسن ادارتهما الى أن صيرا هذا البنك العربي الوحيد في القطر الشامي من البنوك المعدودة ذوي الفروع الكثيرة صار يشتمل على خمسمائة الف جنيه .

وكذلك أسسا بنكاً زراعياً شاطر في تأسيسه أكثر من خمسة آلاف مساهم من عرب فلسطين وبلغ رأسماله نيفاً ومائة الف جنيه ، فسدّت بهذين البنكين الأمة العربية في فلسطين حاجتها واستغنى ذوو الحمية منها عن الالتجاء إلى بنوك الأجانب ، وفهم الناس ان هؤلاء ليسوا فوق الشرقيين وأنهم لا يعجزون .

إنما جئنا بهاتين المسألتين للاستدلال على الاضرار الفظيعة التي كان يحدثها بالمسلمين عدم ثقتهم بأنفسهم .

ولعلهم بدأوا يتعافون الآن من هذا المرض الاجتماعي المهلك والله غالب على أمره .

هكذا إذا توجهت الهمم

الاصلاحات المعنوية والمادية في البلاد المقدسة

توالت على بلاد الإسلام المقدسة قرون واحقاب كانت فيهـــا أشد البلاد افتقاراً إلى الاصلاح وأقربهـــا إلى الفوضى وأقلها أمنة سُبُل وراحة سكان واكثرها عيثاً وفساداً . وكانت هذه الحـــالة فظيعة جداً مخجلة لكل مسلم مرمضة لكل مؤمن حجـة ناصعة للأجانب على المسلمين الذين لا يقـدرون أن ينكروا ما في الحجاز من اختلال السبل واضطراب الحبل مع كونه هو مهد الاسلام ومركز الحجيج العام في كل عام الى بيت الله الحرام والمشاعر العظام ومهوى قلوب يتأجج بها الغرام لزيارة مرقد الرسول عليه الصلاة والسلام .

كل الأجـانب يستظهرون بهذه الحـالة على دعوى ان الإسلام لا يلتئم مع العمران وانه هو والفوضى توأمان. وانه لو كان ديناً عمرانياً لما كانت تكون هذه الحالة السيئة في مركزه ولما عجز عن إقامة العدل والأمن في مأزره .

وحقيقة الحال هي ان تلك الفوضى لم تنشأ إلا عن اهمال العمل بقواعد الشرع الإسلامي وعن ارخاء العنان لبعض الأمراء الذين كانوا يلون أمر الحجاز مدلّين على الناس بما لهم من النسب النبوي الشريف الذي كان يخول

بين سلاطين الإسلام وبين تشديد الوطأة عليهم او ارهاف الحد فيهم ، وقد كان هذا من خطل الرأي ومن التقصير في جانب الشرع فان الشريعة الإسلامية لا تعرف نسباً ولا حسباً .

فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ [1] .

وان الله تعالى قد جعل التقوى فوق كل المناقب والمحامد وقرر ان من قصر به عمله لم ينهض به نسبه ومن المروي عن النبي ﷺ : «إلا إن بعض آل بيتي يرون أنفسهم أولى الناس بي وليس الأمر كذلك . إنما أوليائي المتقون من كانوا وحيث كانوا . إلا اني لا أجيز لأهل بيتي أن يفسدوا ما أصلحت ».

هذا حديث نقله لنا خاتمة المحدثين المرحوم السيد بدر الدين الحسني المغربي الدمشقي وكيف كانت درجة ثبوته فهو مطابق لروح الشرع تتفجر معانيه من كل ناحية من الكتاب .

ولهذا كان سلاطين الإسلام من وقت الى آخر ينذرون من أمراء الحرمين من كانوا يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق . ولقد ذهب مثلاً ذلك الكتاب الذي كتبه أحد سلاطين مصر من المماليك إلى أحد أمراء مكة المكرمة وهو الذي يقول فيه :

« اعلم ان الحسنة في نفسها حسنة وهي من بيت النبوة أحسن ، والسيئة في نفسها سيئة وهي من بيت النبوة أسوأ ، وقد بلغنا انك بدلت حرم

---

(١) المؤمنون : ١٠١ .

الامن بالخيفة ، وأتيت ما يحمرُّ له الوجوه وتسودُّ الصحيفة ، فان وقفت عند حدك وإلا أغمدنا فيك سيف جدّك » .

ولا ينبغي أن يفهم من هنا ان هؤلاء الأمراء لم يكن فيهم إلا من استحق هذا الوصف . كلا . فقد وجد فيهم الامراء العادلون إلا أنه قد بقيت مع الأسف أحوال الحجاز غير مستوية وأعراب البادية يسطون على الحجاج وليس لداء معرتهم علاج وكانت كل من الدولة العثمانية والدولة المصرية ترسل طوابير من الجند النظامي مصحوبة بالمدافع وسائر آلات القتال لأجل خفارة قوافل الحج وتؤدي الى زعماء القبائل الرواتب الوافرة وكل هذا لم يكن يمنع الأعراب ومن لا يخاف الله من الدعار من تخطف الحجاج في كل فرصة تلوح لهم .

وكثيراً ما كانت قافلة الحج تضطر الى الرجوع وقد فاتها الحج أو الزيارة بعد ان قصدوا ذلك من مكان سحيق وتكلفوا بذل الأموال وتجشموا مشاق الأسفار في البر والبحر فكانوا يذوبون من الشوق على ما فاتهم ويتحرقون من الوجد ويبكون بصيب الدمع والناس بأجمعهم يحوقلون ويقولون :

(ليس لها من دون الله كاشفة) ذاهبين الى ان سطو الأعراب هؤلاء داء عضال لا تنفع فيه حيلة ولا وسيلة وقد عمت بهم البلوى والى الله المشتكى . وهكذا توالت القرون والحقب والناس على هذا الاعتقاد لا يتزحزحون عنه الى ان آل أمر الحجاز الى الملك عبد العزيز بن سعود منذ بضع عشرة سنة فلم تمض سنة واحدة حتى انقلب الحجاز من مسبعة تزأر فيها الضواري في كل يوم بل في كل ساعة إلى مهد أمان وقرارة اطمئنان ، ينام فيها الأنام بملء الأجفان ولا يخشون سطوة عاد ولا غارة حاضر ولا باد ، وكأن أولئك الأعراب الذين روّعوا الحجيج مدة قرون وأحقاب لم يكونوا في الدنيا وكأن هاتيك الذئاب الطلس تحولت الى حملان فلا نهب ولا سلب ولا قتل ولا ضرب ، ولو شاءت الفتاة البكر الآن ان تذهب من مكة الى المدينة أو من

المدينة الى مكة أو إلى أية جهة من المملكة السعودية وهي حاملة الذهب والالماس والياقوت والزمرد ما تجرأ أحد أن يسألها عما معها .

ما من يوم إلا وتُحمل فيه إلى دوائر الشرطة لقَط متعددة ويؤتى بضوال فقدها أصحابها في الطرق وأكثر من يأتي بها الأعراب أنفسهم خدمة للامن العام وإبعاداً للشبهة عنهم وعن ذويهم فسبحان محوّل الاحوال ومقلّب القلوب ووالله لا يوجد في هذا العصر أمن يفوق أمن الحجاز لا في الشرق ولا في الغرب ولا في أوروبا ولا في أمريكا ، وقد تمنّى المستر كراين الاميركي صديق العرب الشهير في احدى خطبه أن يكون في وطنه امريكا الامن الذي رآه في الحجاز واليمن .

وكل من سكن أوروبة وعرف الحجاز في هذه الايام يحكم بأن الأمنة على الأرواح والأعراض والأموال في البقاع المقدسة هي أكمل وأشمل وأوثق أوتاداً وأشد أطناباً منها في الممالك الاوروبية والامريكية ، فأين أولئك الذين كانوا يقولون ان الاعراب لا يقدر على ضبطها انسان وان سكان الفيافي هم غير سائر البلدان فها هو ذا ابن سعود قد ضبطها بأجمعها في مملكته الواسعة ومحا أثر الغارات والثارات بين القبائل وأصبح كل إنسان يقدر أن يجوب الصحارى وهو أعزل ويدخل أرض كل قبيلة دون ان يعترضه معترض أو يسأله سائل إلى أين هو غادٍ أو رائح ولو قيل لبشرٍ ان بلاداً كان ذلك شأنها من الفزع والهول وسفك الدماء وقطع الطرق قد مرد أهلها على هذا البغي وهذا العدوان من سالف الأزمان وانه يليها ابن سعود فلا تمضي على ولايته لها سنة واحدة حتى يطهرها تطهيراً ويملأها أمناً وطمأنينة لظن السامع انه يسمع احلاماً أو خرافات أو اتهم القائل في صحة عقله .

ولكن هذا قد صار حقيقة كلية وقضية واقعية في وقت قصير ، وما أوجده الا همة عالية وعزمة صادقة وإيمان بالله وثقة بالنفس وعلم بأن الله

تعـالى مؤيدٌ من أيـده ناصرٌ من نصره يحث على العمل ويكافىء العامل ويكره اليأس ويقول لعباده :

وَمَنْ يَقْنَطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا ٱلضَّالُّونَ (١) .

وقد سرت بشرى الأمان الذي شمل البلاد المقدسة الحجازية فعمّت اقطار الإسلام وأثلجت صدور أبنائه وارتفعت عن الحجاز تلك المعرّة التي طالما وجم لها المسلمون وذلك بقوة ارادة الملك عبد العزيز بن سعود والتزامه حدود الشرع ولكن ليس هذا كل شيء وقد بقيت حاجات في الصدور فلم يزل يعوز الحجاز وسائل كثيرة للراحة والهنـاء من قبيل الاصلاحات المـادية العمرانية التي يتوق اليها الحجاج ولا يجدونها وهي اصلاحات عصرية لا طاقة للحجاز بها مع قلة الوارد الى بيت المال وازدياد الخرج على الدخل وايضاً مع استئثار اكثر بـــلاد المسلمين بأوقاف الحرمين الشريفين وعدم استعمالها فيما وقفت عليه .

وقد كان يتحتم على العالم الإسلامي ان يشاطر منذ زمن طويل في إزاحـة هذه العلل المادية التي يعتذر الحجاز بحق عن أن يقوم بها وحده لا سيما ان الحرمين الشريفين ليسا للعرب وحدهم بل لجميع المسلمين .

فلم تزل هذه المسألة موضوع الأماني ومتجه الآمال والناس ينتظرون فيها الابتداء بعمل من الأعمال الى أن عقدت مصر عزيمتها على هـذا الأمر الذي تعتبر مصر جد أمينة بأن تطلع به وبأن تكون فيه السباقة والقدوة لغيرها.

ولم يطلق على مصر لقب « كنانة الله في أرضه » عبثـاً بل هي من قديم الدهر موئل الحجاز وانبـار المُسنِتين من أهله ، وحسبك ما قامت به مصر

---

(١) الحجر : من الاية ٥٦ .

عام الرمادة من ميرة الحجاز بطلب سيدنا عمر الى سيدنا عمرو رضي الله عنهما ومن بعد ذلك لم تشتد بأهل الحرمين لأواء ولا عضتهم مسغبة بنابها إلا أسرعت اليهم مصر بالاغاثة وتفريج الكربة ، لم تتخلف مصر عن هذا الواجب في وقت من الاوقات. وفي هذه الأيام عندما اشتد الشعور بوجوب اصلاح الحجاز من الناحية العمرانية بعد أن أزيحت علته من جهة تأمين السوابل كانت مصر هي الناهضة لمد يد المساعدة اليه في هذا الشأن وكأنما كتب في اللوح المحفوظ ان يكون محمد طلعت باشا حرب هو الطالع حرباً على الخلل والفوضى والاهمال في عمران الشرق فوجه شطراً من همته العلياء شطر البيت الحرام الذي قد أمرنا الله بأننا حيث ما كنا نولي وجوهنا شطره لئلا يكون للناس علينا حجة ، فكان طلعت باشا حرب في هذه الحلبة ايضاً هو المجلي وكان قد بدأ من بضع سنين بتأسيس شركة الملاحة البحرية وانشأ البواخر الجواري كالاعلام البالغة الحد الأقصى من أسباب الراحة والانتظام مثل زمزم والكوثر وغيرهما مما قد سبق الكلام عليه وحصل بذلك من الفرج لحجاج بيت الله الحرام ما تحدثت به الركبان وشاع ذكره في البلدان ولكن لم يكن هذا كل ما تسمو اليه همة هذا الرجل من إصلاح عمراني وتنظيم مادي في الحجاز فقصد إلى الارض المقدسة ونظر في مختلف العلل التي تجب معالجتها وعرض نتيجة مشاهداته على الحكومة المصرية التي أسرعت في اجابته الى تقرير اللازم من هذه الاصلاحات الحيوية بالاتفاق مع الحكومة السعودية التي بذلت كل ما في وسعها لأجل تسهيل الاتفاق وتيسير الارتفاق فكان ما ستنفقه الحكومة المصرية والحكومة السعودية في هذه النوبة من اصلاحات الحجاز لإنشاء طرق وانارة كهربائية وتوزيع مياه وتطهيرها وغير ذلك نحواً من مائتين وأربعين ألف جنيه .

وهكذا تكون الدولة المصرية قد نهجت السبيل لجميع الحكومات الإسلامية في العالم أن تشاطر في القيام على قدر إمكانها بما يستلزمه الحجاز

من الاصلاحات العصرية التي لا مندوحة عنهـا في قطر يؤمّـــه المسلمون من المشارق والمغارب سالكين اليه البر والبحر والجو وهو مرشح حتماً بواسطة طرق الانتقـال الحديثة لزيادة العمران وتكاثف السكان وليكون انموذجـاً للجمال الصوري والمعنوي ومثالاً لطيب النجعة في الشتاء والصيف فان الذي يشتمل عليه الحجـــاز من المصايف البديعة كالطائف والهدى ووادي محرم ووادي ليّه وجبال الشفا العالية ثلاثة آلاف متر عن سطح البحر يندر وجود اشباهه في المعمور كما فصلنا ذلك في رحلتنا الحجازية الموسومة « بالارتسامات اللطاف » لا يعوز هذه الأمكنة الممتازة بطيب هوائها وجودة مناخها وجمال إقليمها سوى الطرق المعبّدة للسيارات حتى تقرب المسافات .

وقد نشرت شركة بنك مصر عن الاصلاحات اللازمة للحجاز تقارير وافية قيمة من اقـلام المهندسين البـارعين الذين أنفذتهم شركة البنـك إلى الأراضي المقدسة مثل محمد الجمال بك نائب المدير العام لمعامل الغزل والنسيج المصرية الذي تكلم عن حالة الحجاز العمومية وقابلية أرضهـا وما يلزم لهـذه البلاد من الأسباب الفنية والمدارس الصناعية وألمّ بمشروع الميـاه الذي يلزم له بناء خزان في مرتفع تعلو عنه عين زبيدة بحيث يسد كل عوز في مكة ومن جهة المياه وبمشروع إضاءة مكة بالكهرباء وبمشروع إنشاء طريق صالحة للسيارات من جدة إلى البلد الحرام أو سكة حديدية توصل بينهما .

ومشروعات أخرى تضمنهـا هـذا التقرير الواضح المفيد الذي ليس فيه محل نظر سوى تخمينه عدد مسلمي المعمور بمائتين وخمسين مليونـاً فهذا خطأ فاحش ناشىء عن متابعة إحصاءات قديمة أوروبية غير نزيهة ، أو ثمـة خطأ مطبعي تصحيحه ٣٥٠ مليوناً (ثلاثمائة وخمسون مليوناً) وهـذا ايضاً دون الواقع كما أوضحنا ذلـــك بالاحصاءات الرسمية والبراهين الساطعة في مجلتنا « لا ناسيون آراب » رداً على الزاعمين ان عـدد المسلمين ٢٦٠ مليوناً مع ان مسلمي آسية وحدها ينيفون على ٢٦٠ مليونـاً وقد بقي غير داخل في هـذا

الاحصاء مسلمو افريقيا الذين يناهزون مائة مليون ومسلمو أوروبا الذين هم من خمسة الى ستة ملايين .

ولقد اهتممنا بهذا الموضوع عمداً لما نحسه من تحرج صدور الاوروبيين بكثرة عدد المسلمين واجتهاد الدول الاستعمارية بخاصة ان ينقصوا من عددهم ويُخسروا من وزنهم. فمحصنا هذا البحث عدة مرات لما نشعر من نيتهم هذه.

ثم نعود إلى قضية اصلاحات الحجاز فنقول :

إن من جملة التقارير الوافية في هذا الموضوع تقريراً محرراً بقلم المهندس المحقق السيد حسن البهتيمي الذي يتكلم على تحويل مجرى السيل عن مكة وعلى تحسين طريق المسعى بين الصفا والمروة وتحسين طريقة ورود المياه بعرفات من عين زبيدة وإنارة البلد الأمين بالكهرباء وتقريراً آخر في هذه المسائل نفسها من قلم السيد مصطفى ماهر رئيس مهندسي مياه الجيزة والجزيرة بمصر ذهب فيه إلى أنه بعد أن يتم اصلاح توزيع عين زبيدة وعين حنين التي يتفرغ منها المجرى المسمى بعين الزعفران يجب ان يباشر الحفر في سائر الآبار والأودية التي هي مظان مياه غزيرة تفيض عن حاجة مكة من جهة شرب الشفة وتكفي للزراعة والبساتين قال : ومشروع المياه سيكون مفتاحاً للبحث عن هذه الكنوز الأرضية .

وتكلم المهندس المشار اليه عن بئر زمزم وقال إن في مائها املاحاً نافعة كأملاح المياه التي يستشفى بها في أوروبا فهي من هذه الوجهة صالحة لتوضع في زجاجات معقمة مقفلة وتحمل الى الخارج وتباع فيكون منها ربح جزيل.

ثم أشار بالوسائل اللازمة لصيانتها من الجراثيم الضارة وان يتولى عالم بكتريولوجي دوام تحليلها ليكون تعقيمها تاماً .

وتكلم عن عملية مياه عين زبيدة وبناء الخزانات اللازمة بتفاصيل ليس هنا مكانها .

وأصحب التقرير بالرسوم التي توضح كل شيء وأشار الى إنارة مكة بالقوة الكهربائية وما فيها من أرباح وفوائد وذلك كما قرره المهندسون الآخرون ولكل وجهة هو موليها .

وفي تقرير المهندس الكبير السيد مصطفى ماهر كلام خاص بالمدينة المنورة التي هي جنة من جنان الأرض وفيه وصف مياهها العذبة الغزيرة وحدائقها الغناء وقد ختم تقريره الشائق بقوله :

وإني أسأل الله أن يوفق عباده المؤمنين الى مد يد المعونة الى الأراضي المقدسة قبلة المسلمين كل فيما يقدر عليه للتيسير على اهلها والاحتفاظ لهذه البقاع الطاهرة بما يليق بها من الجلال والوقار . اهـ

وتنتهي مجموعة هذه المباحث التي أعظم اليد في اجرائها لطلعت باشا حرب بالتقارير الصحية الجلية الوافية من قلم العلماء المتخصصين السادة محمد حسن العبد ومصطفى ماهر وحسن حسني راشد الكيمائي بوزارة الصحة المصرية وحسن البهتيمي وكيل القلم الفني ببنك مصر .

وفي هذه التقارير التحليلات المفصلة الدقيقة لمياه بئر زمزم ومياه عين زبيدة ومياه عين الزعفران في مكة وعين الزرقاء في المدينة المنورة مع التواصي الفنية اللازمة للاستفادة منها .

ولما كانت هذه المجموعة قد نشرت وتوزعت اكتفينا منها بلمحة دالة في هذه الرسالة سائلين الله ان يوفق كلا من الدولتين العزيزتين المصرية والسعودية إلى إتمام هذه الاصلاحات الجليلة بحذافيرها فان الاصلاح واجب في كل مكان فكيف البقاع المقدسة .

خلاصة الجواب

« ان المسلمين ينهضون بمثل ما نهض غيرهم »

إن الواجب على المسلمين – لينهضوا ويتقدموا ويتعرجوا في مصاعد المجد، ويترقوا كما ترقى غيرهم من الأمم – هو الجهاد بالمال والنفس الذي أمر به الله في قرآنه مراراً عديدة ، وهو ما يسمونه اليوم (بالتضحية) .

فلن يتم للمسلمين ولا لأمة من الأمم نجاح ولا رقي إلا بالتضحية ، وربما كان الشيخ محمد بسيوني عمران او غيره من السائلين عن رأينا في هذا الموضوع قد ظن اني سأجيبه ان مفتاح الرقي هو قراءة نظريات (اينشتين) في النسبية مثلاً أو درس أشعة (رونتجين) أو ميكروبات (باستور) أو التعويل في اللاسلكي على التموجات الصغيرة أكثر من الكبيرة ، أو درس اختراعات (اديسون) وان سبب حادثة المنطاد الانكليزي الذي سقط اخيراً واحترق هو كونه لم ينفخ بالهليوم وإنما بالهيدروجين ، والحال في الهيدروجين – وإن كان أخف في الوزن – قابل للاشتعال ، وانه لا خوف من اشتعال الهليوم وإن كان أثقل شيئاً من الهيدروجين – وما أشبه ذلك .

والحقيقة ان هذه الأمور إنما هي فروع لا أصول ، وانها نتائج لا مقدمات ، وان (التضحية) او الجهاد بالمال والنفس هو العلم الأعلى الذي يهتف بالعلوم كلها ، فإذا تعلمت الأمة هذا العلم وعملت به دانت لها سائر العلوم والمعارف ودنت منها جميع القطوف والجاني .

وليس بضروري أن يكون صاحب الحاجة عالماً بعملها حتى يكون عالماً بالاحتياج اليها .

قال لي مرة حكيم الشرق السيد جمال الدين الأفغاني :

« إن الوالد الشفيق يكون من أجهل الجهلاء ، فإذا مرض ابنه اختار له أحذق الأطباء ، وعلم ان هناك شيئاً نافعاً هو العلم لا يعلم هو شيئاً منه ، ولكنه يعلم بسائق حرصه على حياة ابنه أنه ضروري » .

ولم يكن محمد علي عالماً وربما كان أمياً ، ولكنه بعث مصر من العدم إلى الوجود في زمن قصير ، وصيرها في زمانه من الدول العظام بسائق هذا العلم الأعلى الذي هو العقل السليم والارادة ، وهو الذي يبعث صاحبه الى التفتيش عن العلوم وحمل الأمة عليها .

فالمسلمون يمكنهم إذا أرادوا بعث العزائم وعملوا بما حرضهم عليه كتابهم أن يبلغوا مبالغ الاوروبيين والامريكيين واليابانيين من العلم والارتقاء ، وأن يبقوا على إسلامهم كما بقي أولئك على أديانهم ، بل هم أولى بذلك وأحرى ، فان أولئك رجال ونحن رجال ، وإنما الذي يعوزنا الاعمال ، وإنما الذي يضرنا هو التشاؤم والاستخذاء وانقطاع الآمال . فلننفض غبار اليأس ولنتقدم الى الأمام ، ولنعلم أننا بالغو كل أمنية بالعمل والدأب والاقدام ، وتحقيق شروط الإيمان التي في القرآن :

وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ [1] .

لوزان ١١ نوفمبر سنة ١٩٣٠ .

شكيب ارسلان

« تم الجواب »

---

(١) العنكبوت : ٦٩ .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الثانية	٥
نظرة عامة	١١
شكيب ارسلان ، مسقط رأسه ، نشأته ، أمير البيان ، نضاله وأهدافه ، عودته إلى الوطن ووصيته الأخيرة ، لماذا تأخر المسلمون ، ثلاثة أيام ، أثر الرسالة ، الرسالة في الميزان ، كتبه ومنشوراته بحسب تسلسلها الزمني، أقوال الاعلام في أمير البيان.	
مقدمة الرسالة لصاحب المنار	٣٣
كتاب الشيخ محمد بسيوني عمران	٣٧
جواب الأمير شكيب ارسلان	٣٩
أسباب ارتقاء المسلمين الماضي	٤١
فقد المسلمين السبب الذي ساد به سلفهم	٤٢
المقابلة بين حالي المسلمين والافرنج اليوم	٤٥

الموضوع	الصفحة
اعتذار المسلمين عن نفسهم ورده	٤٩
نتائج اعانة مصر لمجاهدي طرابلس وبرقة	٥٤
النشيد الطلياني في التحريض على قتال المسلمين ومحو القرآن	٥٧
خيانة بعض المسلمين لدينهم ووطنهم بخدمة الأجانب	٥٩
كلمة الملك ابن سعود في تخاذل المسلمين وتعاديهم	٦٧
الموازنة بين المسلمين والنصارى في البذل لنشر الدين	٧١
أهم اسباب تأخر المسلمين	٧٥
الجهل ، العلم الناقص ، فساد الأخلاق ولا سيما أخلاق الأمراء والعلماء ، الجبن والهلع ، اليأس والقنوط ، نسيان ماضيهم المجيد.	
شبهات الجهلاء الجبناء وردها	٧٨
ضياع الإسلام بين الجامدين والجاحدين	٨٨
محافظة الشعوب الافرنجية على قوميتها	٨٨
العبرة للعرب وسائر المسلمين برقي اليابانيين	٩١
لماذا لا نسمي اليابان واوروبا رجعية بتدينهما	٩٥
غوائل الجامدين في الاسلام والمسلمين	١٠١
آيات القرآن في العمل المبطلة لتفسير القدر بالجبر والكسل	١٠٤
كون المسلمين الجامدين فتنة لأعداء الاسلام وحجة عليه	١١٣
مدنية الاسلام	١١٩
الرد على حساد المدنية الاسلامية المكابرين	١٢٣
اليونان والرومان قبل النصرانية وبعدها	١٢٥
سبب تأخر أوروبا الماضي ونهضتها الحاضرة	١٢٩

الموضوع	الصفحة
حث القرآن على العلم	١٣٣
(باعث للمسلمين على سبق الأمم في الرقي)	
كلمة لطلاب النهضة القومية دون الدينية	١٣٨
أسباب انحطاط المسلمين في العصر الاخير	١٤١
هكذا اذا توجهت الهمم	١٥٣
الاصلاحات المعنوية والمادية في البلاد المقدسة	
خلاصة الجواب	١٦٣
ان المسلمين ينهضون بمثل ما نهض به غيرهم	

طبع هذا الكتاب على مطابع
دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر
بيروت - شارع سوريا
تليفون ٢٣١٩٣٠ ص.ب ١٣٩٠